البـابُ الثـالث

الإمامة الروحية

الفصل الأول

علي زين العابدين

لاشك أن الشيعة الإمامية قد بدأت عقيدتها في الإمامة الروحية بالإمام علي بن أبي طالب . بل إن المسلمين عامة — شيعة وسنة — يرون نفس الأمر في علي ، ولكن عليا كان بجانب خصائصه الروحية الكبرى مقاتلاً ، كما كان ابنه الحسين من بعده . بل إن ابنه الحسن أراد القتال أيضاً أول الأمر . ثم إذا اتجهنا إلى الابن الثالث محمد بن الحنفية ، نراه من طرف خفي ، يدفع المختار إلى حركته العنيفة ، فيقتل قتلة الحسين جميعاً وإن كان هو نفسه قد أبى أن يبايعه المسلمون حتى تجتمع الأمة جميعاً عليه . ولكن بقي العقب الوحيد الباقي من أبناء الحسين «علي بن الحسين» يحظ للشيعة بل للمسلمين جميعاً سنة أخرى . وقد أجمع أهل السنة والجماعة والشيعة على تلقيبه بزين العابدين وبالسجاد ، وبذي الثفنات ، وغلب عليه اللقب الأول ؛ بل نرى عالم الخلف العظيم محمد بن زاهد الكوثري يدعوه «بالإمام الذي يجل عن الوصف [1] » .

ولد علي بن الحسين بالمدينة عام ٣٨هـ. ومات جد علي وهو في السنة الثانية من عمره، وقتل أبوه في سهل كربلاء، وهو في الثالثة والعشرين، وكان مريضاً فلم يشترك في المذبحة التي قتل فيها أبوه وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه . وأراد عبيد الله بن زياد قتله ، ولكن عمته زينب بنت علي قامت دونه تحول بينهم وبينه ، وأرسله عبيد الله إلى يزيد مع أهل بيت الحسين عليه السلام من النساء . وحين وصلت قافلة آل الرسول من النساء إلى دمشق ، أراد الأمويون قتله حتى لا يبقى من آل الرسول أحد على وجه الأرض . ولكن زينب بنت فاطمة الزهراء حالت دون هذا مرة أخرى ، ويقرر يزيد آخر الأمر ان يوجه بعلي بن الحسين إلى المدينة مع نساء آل البيت . ووصل علي بن الحسين إلى المدينة ، واستقر فيها لم يبرحها — على الإطلاق — مدى حياته [2] .

كانت الحوادث قد صقلته صقلاً نهائياً ليكون أول عابد رسمي من عباد الإسلام . وأن يأخذ بحق لقب زين العابدين والسجاد وذي الثفنات . رأى بعينيه الصفوة من آل رسول الله يتساقطون الواحد بعد

---

(١) هامش كتاب التبصير. للإسفرايني .

(٢) ابن العماد-شذرات الذهب ج ١ ص ١٠٤.

الآخر أمام سيوف أهل الكوفة الغلاظ ، ثم رأى ما نزل بالصفوة من نساء بنى هاشم من مهانة ، من ابن مرجانة ، ثم من يزيد ، رأى نفسه وقد أمره يزيد أن يصعد المنبر فى دمشق « لكى يعذر إلى الناس مما كان من أبيه » ليعلن للناس أن أباه كان على الباطل ، وهو موقن أن أباه كان على الحق ، ويصعد الشاب الفتى إلى المنبر فيصيح « يأيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا على بن الحسين ، أناابن البشير النذير ، أنا ابن الداعى إلى الله بإذنه ، أنا ابن السراج المنير [١] » رأى كل هذا ، وأخيراً يجد نفسه ثانية عائداً إلى المدينة ، هو وآل بيته من النساء مشعثاً مغبراً ، وبالأمس القريب كان يترك المدينة مع أبيه وأهل بيته ، مستجيبين لدعوة أهل العراق وكلهم أمل فى نصرتهم لأبيه . فلجأ إلى العبادة ، وإلى كثرة السجود ؛ وإلى المقابر يلوذ بها . ولكن الأحداث تترى ، وتصبح المدينة مرة أخرى مسرحاً لأعظم الحوادث فى العالم الإسلامى . فقد أعلن أهلها من الأنصار الثورة ضد يزيد خليفة دمشق الغارق فى لهوه وفجره ولعبه وسكره ، وأخرجوا عامله عليها . فأرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة إلى الأنصار ، فهزمهم فى واقعة الحرة ، ثم دخل مسلم بن عقبة المدينة ، وكان يؤتى إليه بالرجل من الأنصار فيطلب منه أن يبايع على أنه عبد ليزيد . وكان الأنصار يأبون هذا ، فقتلهم مسلم واحداً بعد واحد . وكان على بن الحسين قد لاذ بالقبر النبوى ، فلما رأى فشو القتل فى المسلمين ، ذهب إلى مسلم فقال له : علام يريد يزيد أن أبايعك ؟ فأجاب مسلم الجبار ، وقد ارتعد من السجاد وقام له قائلاً : على أنك أخ وابن عم . فقال : وإن أردت أن أبايعك على أنى عبد فن فعلت . فقال مسلم : ما أجشمك هذا . فلما رأى أهل المدينة إجابة على بن الحسين . قالوا : هذا ابن رسول الله ﷺ بايعه على ما يريد ، فبايعوه على ما أراد [٢] » وبهذا أنقذ على بن الحسين الكثيرين من أهل المدينة من القتل . وكانت هذه أول قدوة قدمها على بن الحسين لإنقاذ المسلمين من سيف يزيد القاسى .

ومات يزيد . وأقبل العراقيون إلى على بن الحسين يحاولون جذبه إليهم ، وينادون بإمامته . فقال لهم ، وقد ذكر جده وعمه وأباه « ما أكذبكم وأجرأكم على الحق ، نحن من صالحى قومنا وبحسبنا أن نكون من صالحى قومنا [٣] » فلا عجب إذن . إن رفض دعوة المختار إليه ليبايعه ، يقول المسعودى : « وكتب المختار كتاباً إلى على السجاد يريد أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه مالاً

---

(١) أبو الفرج الاصبهانى : مقاتل الطالبين . ص ٨٩ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ وأيضاً المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٨ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٥٨ .

كثيراً ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، وأن يجيبه على كتابه [١] » ، بل نصح عمه محمد بن الحنفية أن يفعل ذلك ، ولكن محمد بن الحنفية أبى ، وأرسل بعده إلى المختار ، ويبدو أن على زين العابدين خشى أشد الخشية أن تؤدى حركة المختار إلى قتل الشيعة فى الكوفة ، وهو أمر حاول بكل الوسائل أن يتجنبه ولكن مالبث أن رضى عن المختار حين قتل عبيد الله بن زياد . يذكر اليعقوبى «أن المختار وجه برأس عبيد الله بن زياد — قاتل الحسين عليه السلام — إلى على بن الحسين عليه السلام إلى المدينة مع رجل من قومه ، وقال له : قف بباب على بن الحسين ، فإذا رأيت أبوابه قد فتحت ودخل الناس ، فإذ ذاك الوقت الذى يوضع فيه طعامه ، فأدخل إليه . فجاء الرسول إلى باب على بن الحسين عليه السلام ، فلما فتحت أبوابه ودخل الناس للطعام ، نادى بأعلى صوته : يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الملائكة ومنزل الوحى ، أنا رسول المختار بن أبى عبيد ، معى رأس عبيد الله بن زياد ؛ فلم تبق فى شىء من دور بنى هاشم امرأة إلا صرخت . ودخل الرسول ، فأخرج الرأس » فلما رأى على زين العابدين رأس قاتل أبيه وقاتل إخوته وأولاد أعمامه ،ومذل نساء الرسول ، أشاح بوجهه وقال «أبعده الله إلى النار» ويروى اليعقوبى : «أن على بن الحسين لم ير ضاحكاً منذ قتل أبوه إلا فى ذلك اليوم ، وأنه كان له إبل تحمل الفاكهة من الشام إلى المدينة ، فلما أتى برأس عبيد الله بن زياد أمر بتلك الفاكهة ففرقت فى المدينة . وفى هذا اليوم أيضا اختضبت نساء آل الرسول ﷺ ، وما اختضبت امرأة منهن منذ قتل الحسين »[٢] .

وعاش على بن الحسين الأحداث العظمى التى مرت بالعالم الإسلامى إبان ذلك الوقت ، عاصر حركة ابن الزبير ، ولكنه لم يكن — فيما يرجح — ممن حصرهم عبد الله بن الزبير فى شعب مكة . فاسم زين العابدين لا يظهر فى تلك الأحداث ، كان معه محمد بن الحنفية هو صاحبها . وحين أعلنت الكيسانية مهدية محمد بن الحنفية ، لم ينازعه زين العابدين الأمر ، بل حين أعلن كعب الأحبار ، أن محمد بن الحنفية ، هو المهدى ، لم ينبس على زين العابدين ببنت شفة ، بل يقوم الشعراء — ككثير ينادى واصفاً محمد بن الحنفية :

هو المهدى خبرناه كعب أخو الأحبار فى الحقب الخوالى [٣]

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ . ج ٣ ص ٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٥ .

يسمع كل هذا فلا يعترض على ، وتعلن الكيسانية أن الأئمة من قريش أربعة على والثلاثة من بنيه ، ولا يقدح زين العابدين فى عمه لا من بعيد ولا من قريب ولقد اندفعت الإمامية فيما بعد إلى المقارنة بين على زين العابدين ، وبين عمه محمد بن الحنفية ، ولجأوا إلى وضع أسطورة الاحتكام إلى الحجر الأسود حين تنازع الاثنان الوصية وحكم الحجر الأسود لعلى زين العابدين ، فقبل محمد بن الحنفية إمامة ابن أخيه . وكل هذه أخبار لا ظل لها فى الحقيقة ، فلم يختلف الاثنان قط ، بل كان محمد بن الحنفية كشيخ بنى هاشم ! إبان ذلك الوقت أكبر مدافع عن بنى الفواطم ، ولقد وقف يقارع عبد الله ابن الزبير الحجة ويعرض نفسه للقتل حين وقف هذا الأخير يخطب ويقول : إنى لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة ، ثم هاجم علياً وأبناء فاطمة ، وقد نفاه عبد الله بن الزبير إلى منى وحبس ابنه الحسن بن محمد بن الحنفية ، ثم ادعى ابن الزبير — وهو يلحد فى حرم الله — أنه العائذ بالبيت ويرد عليه كثير :

تخير من لاقيت أنك عائذ ... بل العائذ المظلوم فى سجن غارم
ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى ... من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمى نبى الله وابن وصيه ... وفكاك أغلال وقاضى مغارم

بل عمد ابن الزبير — بعد أن حصر محمد بن الحنفية وبنى هاشم — إلى حطب كبير لو وقعت فيه شرارة من نار ، لم يسلم من الموت أحد (١) . فعل ابن الحنفية كل هذا لأجل أبيه على وإخوته من بنى الفواطم فما كان إذن لزين العابدين أن يختلف معه . ومات محمد بن الحنفية فى المدينة عام ٨١ هـ . ولم يختلف أبداً مع ابن أخيه .

كان لعلى زين العابدين طراز فى الحياة أغناه عن الخلاف مع الناس . كان يتعبد بلا انقطاع ، فسمى بزين العابدين ، ويكثر السجود ، فقيل له السجاد ، وصهر نفسه فى العبادة حتى ثفنت جبهته — وورمت ركبتاه وراحتاه — فسمى بذى الثفنات وكان يقول « إن لله عباداً عبدوه رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرين عبدوه رغبة ، فتلك عبادة التجار ، وآخرين عبدوه شكراً ، فتلك عبادة الأحرار (٢) . وسن للشيعة البكاء على الحسن بل اعتبره الشيعة أحد البكائين الخمسة . فقد بكى آدم ثلاثمائة سنة بعد ارتكابه المعصية ، وبكى نوح قومه ، ويعقوب يوسف ، ويحيى خوف النار ، وبكت فاطمة النبى صلوات الله عليه ، وزين العابدين الحسين والذى استشهدوا معه . وقد طبع زين العابدين التشيع عامة بالحزن المقيم ، وشارك فيه على السواء الغلاة والمقتصدون من الشيعة . ولقد طبعت حركة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣ .
(٢) ابن العماد : شذرات ج ١ ص ١٥٤ .

التوابين من ناحية وحركة المختارية والكيسانية من ناحية أخرى بهذا الطابع الحزين ، ولعل هذا ما يفسر إسراع المختار بن أبى عبيد بإرسال رأس عبد الله بن زياد إلى على زين العابدين ، ولم يرسلها إلى الإمام الرسمى للشيعة محمد بن الحنفية ، مع أن المختار كان يقاتل بأسمه وتحت رايته ، ولقد عاش هذا الحزن الذى انبثق من قلب زين العابدين فى قلوب الشيعة حتى يومنا هذا . غير أنه انقلب إلى حقد مقيت وسخيمة قتالة ، ولم يعرف ابن الحسين هذا أبداً . بل إن الحديث الذى رواه عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد عن رسول الله إنما كان يتناول غفران الله للعابدين : كل عين باكية للقيامة إلا أربعة : عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين فقئت فى سبيل الله تعالى ، وعين غفت عن محارم الله تعالى ، وعين باتت ساهرة ساجدة يباهى الله الملائكة يقول : انظروا إلى عبدى روحه عندى وجسده فى طاعتى ، قد جافى بدنه عن المضاجع يدعونى خوفاً من عذابى وطمعاً فى رحمتى ، اشهدوا أنى غفرت له (١) ، لقد كان البكاء على الحسين هو السنة التى استنها على بن الحسين للشيعة وقد نقل الشيعة عنه «أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين ، حتى تسيل على خده ، بوأه الله بها فى الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً ، وأيما مؤمن دمعت عيناه على خديه فيما مسنا من الأذى من عدونا فى الدنيا ، بوأه الله منزل صدق ، وأيما مؤمن مسه أذى فينا ، فدمعت عيناه حتى تسيل على خديه من فرط ما أوذى فينا ، صرف الله عن وجهه الأذى وأمنه يوم القيامة من عذاب النار» (٢) ، ولقد كان البكاء على الحسين كما قلت داعياً إلى قيام حركة التوابين ، وإلى ملحمتهم الكبرى فى عين الوردة – فقد نادى التوابون كما قلنا بالتلاوم والتنادم وخرجوا وقد أخذت ذكرى الحسين عليهم أيما مأخذ – ووقف عبد الله بن الأحمر يبكى الحسين :

صحوت وقد وودعت الصبا والغواديا ... وقلت لأصحابى أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى ... وقبل الدعا : لبيك لبيك داعيا
ألا وانع خير الناس جداً ووالداً ... حسبنا لأهل الدين إن كنت ناعيا
لبيك حسينا مرمل ذو خصاصة ... عديم وأيتام تشكى الموالیا
فأضحى حسين للرماح دريئة ... وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويا
فياليتنى إذ ذاك كنت شهدته ... فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى ... بغربية الطف الغمام الغواديا

---

(١) كاظم جواد الساعدى : حياة الإمام على بن الحسين ص ٣٢٩ و ٣٣٠ .

(٢) انظر الفصل الرائع الذى كتبه أحمد صبحى عمر عن على زين العابدين فى بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية وهو بحث تحت الطبع . وإنى لأدين له بمعرفة كثير من هذه النصوص عن على زين العابدين ومواضعها .

فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنيبو فأرضوا الواحد المتعاليا[١]

هذه صورة لبكاء على بن الحسين يتردد فى الكوفة . فيقوم التوابون بحركتهم ويقتل التوابون ، ولكن الشيعة يجددون البكاء على الحسين فى مجالس العزاء الشيعية ويذكرون فيها الحسين على الدوام . وقد بقيت هذه المجالس حتى الآن .

أما القداسة التى نسبت إلى أهل البيت ، والعصمة التى أضيفت إليهم ، فلم تر الشيعة المعاصرة لعلى زين العابدين وضعه فى سلسلة الخالدين أو المعصومين أو الراجعين ، فالغلو أو لا يتركز حول جده على ، ثم ينتقل إلى عمه محمد بن الحنفية ، ثم يضفى على أبى هاشم ، ثم ابنه الإمام الباقر . ويبدو أنه قطع الطريق على كل غال بنوع حياته التى حياها ، وبطراز دعواته . وقد قدم لنا الدعاء الآتى : «إلهى بعزتك وجلالك ، ما أردت بمعصيتى مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك معترض ، ولكن سولت لى نفسى وأعاننى على ذلك سترك ، فأنا الآن من عذابك مستجير ، فمن ينقذنى ؟ وبحبل من أعتصم ؟ إن قطعته عنى فوا أسفاً مما ألقاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخففين جوزوا ، وللمثقلين حطوا ، أمع المخففين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ . سبحانك تعفو كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعط تتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم وأنت سيدى الغنى عنهم» فلما قيل له «أنت تفعل هذا بنفسك وأبوك الحسين ، وأمك فاطمة وجدك رسول الله . فقال : هيهات هيهات – دع عنك حديث أبى وأمى وجدى . خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان شريفاً قرشياً ، فإذا نفخ فى الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» [٢] ، فهو هنا يعلن أنه رجل من قريش ، عليه ما على الناس وله ماهم ، بل ولا فضل لقرشى على عجمى . بل إنه يقول لأهل العراق «ما أكذبكم وما أجرأكم على الله نحن من صالحى قومنا ، وبحسبنا أن تكون من صالحى قومنا[٣] » ويقول الدكتور كامل الشيبى : إن زين العابدين كان حرباً على السبأية والكيسانية ، وكان يقول لهم «أشهد أنكم لسنم من الذين قال الله عز وجل فيهم» : «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم» . وإنى أعتقد أنه فعل هذا فى مبدأ الأمر ، ولكن صلاته بالمختار كانت على خير ما يكون . وقد قبل هداياه . كما قبل منه أيضاً أم ولده زيد . أما أنه كان يكره الغلو ، فإنه كان يذكر «أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار

---

(١) كاظم جواد الساعدى : حياة الإمام على بن الحسين ص ٣٢٦ ، ٣٣٠ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ... ج ٣ ص ٣٨ .
(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٠ .

علينا عاراً» [١] ويقول أيضاً «إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء» وأشار بيده إلى أهل العراق . فهذا ما فعله أيضاً ابن الحنفية ، وهذا يمثل الجانب الحقيقى من أهل البيت ، أو الجانب السنى فيهم . ولا عجب أن نراه يتولى أصحاب محمد رسول الله ويدعوهم فى الصحيفة السجادية المنسوبة إليه ، وأن نرى ابنه الإمام زيدا يتابع سنة أبيه ويختلف مع غلاة الشيعة فى الكوفة فيما بعد – حين يتولى الشيخين .

وكان من أصحابه أو بمعنى أدق من مشايخه ، سعيد بن المسيب عالم المدينة الكبير وكان سعيد يقول : ما رأيت قط أفضل من على بن الحسين عليه السلام ، وما رأيته قط إلا مقت نفسى [٢] كما كان أيضاً تلميذاً للتابعى الكبير «سعيد بن جبير» ونستنتج من كل هذا أن عليا زين العابدين وضع نفسه فى تيار السنة العام .

ويقول ابن تيمية «أما على بن الحسين ، فمن كبار التابعين وساداتهم علماً ودينا . أخذ عن أبيه وعن ابن عباس والمسور بن مخرمة وأبى رافع مولى رسول الله وعائشة وأم سلمة وصفية أم المؤمنين ، ومروان ابن الحكم وسعيد بن المسيب وعبد الله بن عثمان بن عفان » ، ويذكر ممن روى عنه عدداً كبيراً من المحدثين . ويذكر أن يحيى بن سعيد قال : هو أفضل هاشمى رأيته وروى عن حماد بن زيد قال : سمعت على بن الحسين يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح حبكم حتى صار علينا عاراً» ، ثم يذكر ابن تيمية أن له من الخشوع وصدقة السر وغير ذلك من الفضائل مما هو معروف . وأنه كان متواضعاً يجالس زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب [٣]

ولا نرى أيضاً فى محيط الغلاة فى عصره نسبة العلم السرى إليه وقد نسب الغلاة هذا العلم إلى محمد ابن الحنفية ، كما نسبوه إلى أبى هاشم ، وهو ابن عم زين العابدين ، حقاً إن ابن عربى وهو الصوفى المتأخر ، ينطق عليا زين العابدين بالأبيات الغنوصية الآتية :

إنى لأكتم من علمى جواهره ... كى لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا
وقد تقدم فى هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
يـارب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح ما يرونه حسنا [٤]

---

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ١٠٤ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ . . ج ٣ ص ٤٥ .
(٣) ابن تيمية : منهاج ج ٢ ص ١٢٣ .
(٤) ابن عربى الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٦٠ .

إن من الثابت أن على بن زين العابدين لم يظهر فى سلسلة الأئمة الغنوصيين لدى الغلاة ، لقد وضح كل نواحى حياته أمام الناس ، فلم يعد ثمة مدخل لغنوصى أو لغال أو لدساس . وكان يتكلم دائماً وفى أحاديثه الرقيقة الغنية عن جيران الله – هؤلاء الذين كانوا فى الدنيا يتجالسون فى الله ويتذاكرون فى الله ويتزاورون فى الله ، وأهل الفضل ، الذين إذا جهل عليهم حلموا ، وإذا ظلمو صبروا ، وإذا أسيء عليهم عفوا ، وأهل الصبر الذين صبروا على طاعة الله . وصبروا عن معاصى الله ، بل إنه كره أوائل الكلام العقلى ، واعتبره مراءاً (١) . ووضع بهذا سنة لأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، ولعل أوائل المعتزلة كانوا قد ظهروا فى عصره وسنرى ابنه زيداً يأخذ على واصل بن عطاء وسينكر عليه هذا الإمام الباقر والإمام الصادق .

ويبدو أيضاً أن على زين العابدين سن للشيعة التقية ، فقد اتقى مسلم بن عقبة يوم الحرة ، كما اتقى الحجاج ، وقد حاول الحجاج ، أن يجرعه الغيظ ، وكان يتهدده دائماً ، ولكن الإمام العظيم لم يهن ولم يرع بل قال له «إن لله فى كل يوم ثلاثمائة لحظة وأرجو أن يكفينيك فى أول لحظة من لحظاته»(٢) وأرسل عبد الملك بن مروان بنفس هذا الكلام إلى ملك بيزنطة حين بعث يتهدد عبد الملك بغزو الشام، فلما قرأها ملك بيزنطة قال لرسول عبد الملك «هذا ليس من كلامه ، هذا من كلام عترة نبى» ، وقد كتب عبد الملك بعدها إلى الحجاج – وهو أمير على الحجاز – «جنبنى دماء آل أبى طالب ، فإنى رأيت آل حرب لما تهجموا بها لم ينصروا» فلما تعرض الحجاج بعدها للإمام ، وفى أيام سليمان بن عبد الملك اتقاه زين العابدين ، وكان يرسل إليه الرسائل يقرظه ويمدحه ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز كتب إليه يعظه ويخوفه من الله – فلما سئل عن هذا قال : إن سليمان كان جباراً ، فكتبت إليه بما يكتب إلى الجبارين ، وإن عمر أظهر أمراً ، وكتبت إليه بما شاكله» (٣) ونصائحه بعد ذلك فى «حق السلطان وحق الرعية ، دعوة إلى التقية من السلطان الجائر ، وقد أراد الرجل أن يحفظ دماء الشيعة .(٤)

ثم تأتى مشكلة الزهد ، فهل كان الرجل حقاً رائد الزهد ، كما حاول الزهاد فيما بعد ؟ لقد كان على زين العابدين يقول : «من عف عن محارم الله كان عابداً ومن رضى بقسم الله كان غنياً ، ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلماً ومن صاحب الدنيا بما يجب أن يصاحبوه كان عدلاً ، وبئس القوم اختلوا الدنيا بالدين وبئس القوم قوم عملوا بأعمال يطلبون بها الدنيا» ، وكان يقول «كلكم سيصير حديثاً حسناً فليفعل . وقد نظمه ابن دريد بعد ذلك :

---

(١) الدكتور كامل الشيبى ص ١٦٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٤٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨ .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

بل يضع على زين العابدين أساس فكرة المحاسبة ، وهى فكرة أخذت جانباً كبيراً من تفكير الزهاد والمتصوفة فيقول : « ابن آدم لن تزال بخيرها ما كان لك واعظ من نفسك ، وما كانت المحاسبة من همتك . وما كان لك الخوف شعاراً والحزن دثاراً » نحن نعلم أن المحاسبة وخوف الموت والحزن كانت كلها شعارات الزهاد الأولين . ولكن من الخطأ القول . إن علياً زين العابدين كان يؤسس « نظاماً معيناً » للزهد وللزهاد . ولم يرد عنه أنه لبس الصوف ، كما كان يفعل زهاد الغلاة الشيعة . كان هؤلاء إما يتزهدون فعلاً فى لباس الصوف كما فعلت ليلى الناعطية ، وإما يظهرون التزهد ، وهو تزهد انتهى بهم إلى الزندقة ، كان تزهد على السجاد ، تزهداً إسلامياً ، يشبه زهد على بن أبى طالب نفسه . إنه تزوج وتسرى بل كان يتاجر بين الشام والمدينة ، وهو ما لم يفعله جده الأعلى على . أما الصحيفة السجادية التى نسبت إليه فإن أغلبها منحول ، وضعها الشيعة المتأخرون ، وحملوه فيها ما لم يقله ، وما لا يثبت صحته أمام النقد الداخلى للنصوص . وحين مات وغسل وجدوا على كتفيه جلباً كجلب البعير ، أى قشرة سميكة كتلك التى تعلو الجرح عند البرء منه فقيل لأهله : ما هذه الآثار؟ فقالوا من حمله الطعام فى الليل يدور به على منازل الفقراء . وتذكر المسلمون قوله حين دفنه « فقد الأحبة غربة » (١) وقد عاش على زين العابدين غريباً فى الدنيا ، وذهب آخر الأمر إلى جده العظيم حيث الأحبة ، وحيث لا غربة .

واحتل على زين العابدين بن الحسين المكان البارز لدى الشيعتين الاثنى عشرية والإسماعيلية ، فهو الإمام الرابع لدى الفرقتين ، ومنه تناسلت الأئمة . ولكن لعلى زين العابدين فى تاريخ التشيع مكانة أخرى فهو ابن الخيرتين ، ذلك أن أمه هى شهر بانويه بنت يزدجرد ، آخر الأكاسرة . فقد أسرها العرب هى وأختها فوهبهما عمر بن الخطاب – واحدة للحسين بن على والأخرى لمحمد بن أبى بكر – وقد سماها الحسين تكريماً لها – السلافة . فعلى زين العابدين نسل النبوة والأكاسرة معاً وقد ذكر أبو الأسود الدؤلى الديلمى هذا بقوله :

وإن وليداً بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمائم

هو النور نور الله موضع سره ومنبع ينبوع الإمامة عالم

وقد وضع الشيعة حديثاً عن رسول الله ﷺ وهو « لله من عباده خيرتان : فخيرته من العرب قريش وخيرته من العجم فارس » وقالوا بأن زين العابدين هو المقصود بهذا الحديث . ولعل هذا يفسر بعد ذلك اتباع الفارسيين للمذهب الشيعى فقد جمع العقب الباقى من الحسين بن على فى نفسه وصية

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٥–٤٧ .

الرسول وارث فارس ، فهو إذن صاحب الحق الإلهي فى ملك العرب والعجم ؛ فعلى على عرش قلبه الإسلام وعلى رأسه تاج الأكاسرة . إن هذا الترميز فى على زين العابدين متأخر كل التأخر ، وما فكر فيه ابن الحسين ، ولا فكر فيه معاصره . إن من المؤكد أن دعوى مثل هذه استخدمت فى عصور متأخرة لنشر التشيع الإمامى الاثنى عشرى فى فارس ، ولكنها لم تعرف أولاً ، ولم يذكرها الغلاة ، وكان الكثيرون منهم من الفرس ، كما أن فكرة النور الفارسية الثنوية الغنوصية لم تنسب إلى على زين العابدين ، كما لاحظ ببراعة الدكتور الشيبى أنها نسبت إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر (١) .

ونأتى أخيراً إلى وفاة زين العابدين ، فقد قرر الشيعة أنه مات مسموماً ، وذلك حين رأى الأمويون ازدحام الناس حوله وبالرغم منه ، ويذكرون دليلاً على هذا قصة حجه حينما حج هشام بن عبد الملك . وأراد الأخير أن يصل إلى الحجر الأسود فحال الزحام دون وصوله إليه . فلما أقبل زين العابدين انفرجت الصفوف ، حتى استلم الحجر ، وسأل رجل من أهل الشام : من هذا ؟ فقال هشام : أنا لا أعرفه . وأنشد الفرزدق وكان حاضراً :

هذا سليل حسين وابن فاطمة ... بنت الرسول من انجابت به الظلم
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا (٢)

وخشى الأمويون آخر الأمر الإمام ، والناس تتبعه من حيث لا يريد ، فدسوا إليه من سمه . ولكننا لا نجد إشارة إلى سمه فى أقدم المصادر الشيعية وعلى الأخص فى تاريخى اليعقوبى والمسعودى . ولقد توفى زين العابدين فى خلافة عمر بن عبد العزيز عام ٩٩هـ ، ويقول اليعقوبى إن عمر بن عبد العزيز ذكره يوماً فقال : ذهب سراج الدنيا وجمال الإسلام وزين العابدين . فقيل له : إن ابنه أبا جعفر محمد بن على فيه بقية . بل إنه حين وعظه زين العابدين قبل وفاة الإمام بقليل ، قال عمر بن عبد العزيز : إن أهل هذا البيت لا يخليهم الله من فضل (٣) يبدو إذن أن قصة سمه اخترعها الشيعة المتأخرون لإسباغ العطف على الأئمة ، ولتناسق دعوى الشيعة الاثنى عشرية «أن الأئمة الاثنى عشر قد ماتوا جميعاً شهادة» ، ولقد خلف على زين العابدين أولاداً كثيرين يعنينا منهم اثنان هما : محمد الباقر ، وزيد بن على ، وقد كان لهما الأثر الكبير فى تطور العقيدة الشيعية ، كل من وجهة نظره .

---

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ... ص ١٥٦ .

(٢) انظر القصيدة كاملة فى ابن العماد : شذرات ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٨ .

الفصل الثاني

الإمـــام محمـــد البـــاقر

ولد محمد الباقر سنة ٥٧ هـ . وقتل جده الحسين وله من العمر أربع سنوات . وكان يقول « إني لأذكر مقتله وما نالنا في ذلك الوقت » وقد بشر رسول الله بولادته وقال للصحابي المشهور جابر بن عبد الله الأنصاري : « إنك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدي أشبه الناس بي – اسمه اسمي إذا رأيته لم يخل عليك ، فأقرئه مني السلام » وورد الحديث في صورة أخرى « يا جابر إنك ستعيش حتى تدرك رجلاً من أولادي اسمه اسمي يبقر العالم بقراً ، فإذا رأيته فأقرئه مني السلام » ولما كبر جابر ، وخاف الموت ، كان يسير في طرقات المدينة يصيح « يا باقر يا باقر أين أنت ؟ » حتى ولد محمد ، ودخل الكتاب فأقبل عليه جابر يقبل يديه الصغيرتين ورجليه ويقول « بأبي وأمي شبيه أبيك رسول الله ، إن أباك يقرئك السلام[1] . . وإذا كانت العبادة قد غلبت على أبيه وأصبحت سمته ، فقد غلب العلم على محمد الباقر ، فكان أول عالم من الأئمة الفاطميين بعد علي بن أبي طالب ، وقد عاصر الباقر حتى وفاته عام ١١٩ هـ أهم الحركات العقلية التي أسست التفكير الإسلامي عامة – فيما بعد – كما عاصر أيضاً الحركات السياسية التي سادت في العالم الإسلامي إبان ذلك الوقت ، وإذا كان قد سار على سنة أبيه فيما يخص السياسة ، فقد اختلف عن أبيه في أنه أخذ يرسي قواعد « عقيدة الإمام » ويضعها في أسلوبها المنهجي ، الذي سنراه يتضح عند ابنه جعفر الصادق على أكبر صورة ولقد اعتنى أيضاً بالحديث وروايته ، وقد روى عن أبيه كما روى عن الثقات العظماء من محدثي المدينة كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . ولعله رأى تلك الغنوصية التي أدخلها الغلاة في الأحاديث ، فوجه اهتمامه إلى هذه الناحية الهامة من التراث الإسلامي . وقد أخرج جماعة من ثقات رواة الشيعة من أمثال جابر بن يزيد الجعفي وزرارة بن أعين وبريد العجلي وسدير الصيرفي . وتذكر الأخبار الشيعية أن أبا حنيفة أيضاً روى عنه .

عاصر الباقر ابن عم أبيه أبا هاشم بن محمد بن الحنفية ، وما أحاطه من حركات الغلو في الكوفة ، بل في المدينة نفسها . وقد أهمه كل هذا . وحاول جهده أن يوقف تيار الغلو فتبرأ من حمزة بن عمار

---

(١) اليعقوبي : تاريخ ج ٣ ص ٦١ .

البربرى ولعنه فى مسجد رسول الله(١) كما فعل هذا مع بيان بن سمعان والمغيرة(٢). وفسر الشيعة بقوله «يا معشر الشيعة : شيعة آل محمد ، كونوا المفرقة (أى الوسادة) الوسطى ، يرجع إليكم الغالى ويلحق بكم التالى» ويفسر الغالى بأنه من يقول فيه ما لا يقال فى نفسه ، والتالى بأنه المرتاد يريد الخير يؤجر عليه(٣)» وينبغى أن نلاحظ أن كلمة الإمامية لم تظهر على عهد الباقر ، إنما كان أتباعه هم المقتصدين من الشيعة . ويبدو أنهم كانوا فى عهد زين العابدين والباقر قلة فى المدينة وفى الكوفة . أما بقية الشيعة فقد تقاسمهم الكيسانية بفرقها المختلفة ، والغلاة بحركاتهم العنيفة ، بينما كانت العباسية أو الراوندية تثبت أقدامها فى خراسان وفى وسط هذه الحركات المتضاربة المتناقضة عاش محمد الباقر حياته الهادئة بمنأى عن كل شىء سوى رسالته العلمية ، إن صلته الوحيدة بالسياسة إنما كانت – كما كان أبوه من قبل – ثنايا مدحه للمختار بن أبى عبيد ، وفيما سوى ذلك ، لم يتصل بالسياسة أو يتكلم فيها لا من قريب ولا من بعيد .

ولكن هنا تقابلنا المشكلة التى تقابلنا دائماً فى حقيقة أئمة أهل البيت ، هل دعوا فعلاً إلى نظرية «الإمامة» وهل أرسوا قواعدها ؟ أو «بمعنى أدق : إن أهل السنة والشيعة تتنازعان دائماً آل البيت وكل من ناحية يورد أخباراً تؤكد وجهة نظره» .

وقد جمع تلميذى الدكتور أحمد صبحى فى بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية جملة من هذه الأحاديث المنسوبة إلى الباقر والتى أوردها رجال الشيعة كالمحلى فى «درر البحار» ، والكلينى فى «الكافى» وقام بتحليلها . وأهم هذه الأحاديث : أنه لما سئل «الباقر» عن الحاجة إلى الإمام فقال ليرفع الله العذاب عن أهل الأرض وذكر قول الله ، «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» وقول الإمام الباقر أيضاً «لا تبق الأرض يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ خلق آدم وأسكنه الأرض ، وقيل له : أكان على حجة من الله ورسوله على هذه الأمة فى حياة رسول الله ؟ فقال : نعم يوم أقامه للناس ونصبه علماً ودعاهم إلى ولايته وأمرهم بطاعته . وسئل : أفكانت طاعة على واجبة على الناس فى حياة رسول الله وبعد وفاته ؟ قال : نعم ، ولكنه صمت فلم يتكلم فى حياة الرسول ، وهكذا أنطق الشيعة الإمام الباقر بنظرية الإمام الصامت والإمام الناطق . فإن صح حقاً أنه دعا إليها ، فقد دعا إلى نظرية أو وضع أساساً لنظرية من أدق النظريات الغنوصية والتى استخدمت لدى الإسماعيلية والغلاة فيما بعد .

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٤ وابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٣٩٥ .

(٣) الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٧٠ .

ثم يفسر الباقر الآية «واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» وهو ينظر إلى الحجيج يطوفون الكعبة فيقول : هكذا كانوا يطوفون فى الجاهلية . إنما أمروا أن يطوفوا بها . ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم ويعرضوا علينا نصرتهم» أما أن الحجيج قطعان . يسيرون حول كعبة الله كسيرهم فى الجاهلية . فما كان يخطر على إمام من أهل البيت يعلن فى كل حين أنه لا يريد نصرة المسلمين له لتولى الأمر لقد اعتبر ولايته ولاية روحية لا صلة لها بمال ولا بجاه . أكان ينظر إلى المسلمين فى حجهم هذه النظرة ؟ إنه أشبه بكلام القرامطة فيما بعد حين خاطبوا الحجر الأسود . وهم يضربونه «أيها الحجر كم تعبد فى الأرض وآل محمد لا يظهرون» إن النقد الداخلى للنصوص السالفة الذكر يثبت أنها موضوعة أو محرّفة كما أن نظرية العلم السرى التى تنسب جرثومتها الأولى لمحمد الباقر لم تصدر عنه فيما يبدو .

أما أخبار أهل السنة فقد ذكروا أنه سئل : هل من أهل البيت من أشرك بالله ؟ قال : لا . قيل : وهل منكم أهل البيت من يعتقد بالرجعة . ؟ قال : لا . وسئل : هل منكم أهل البيت – من يبغض أبا بكر وعمر ؟ قال : لا . بل نحبهما ونودهما وندعو لهما[١] . بل إنه يقول لجابر الجعفى : بلغنى أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا وينالون من أبى بكر وعمر ويزعمون أنى أمرتهم بذلك . فأبلغهم أنى والله منهم برىء والذى نفس محمد بيده لو وليت . لتقربت إلى الله بدمائهم . لا نالتنى شفاعة محمد إن لم أستغفر لهما ! ![٢] بل إنه يذكر أبا بكر بالصديق فلما سئل وثب واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً فى الدنيا والآخرة . ويقول : من لم يعرف فضل أبى بكر وعمر فقد جهل السنة . ويفسر قوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله) بقوله : هم أصحاب محمد ﷺ ، فقيل له : هو على : قال : على من أصحاب محمد ﷺ .[٣]

ولقد كانت زوجه وأم ابنه أكبر أئمة الإمامية – جعفر الصادق – هى أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبى بكر الصديق .

وأخيراً نأتى إلى صورة محمد بن على فى كتاب عالم سلفى حارب الشيعة وهو ابن تيمية . يقول : «أبو جعفر محمد بن على من خيار أهل العلم والدين . وقيل إنما سمى الباقر . لأنه بقر العلم لا لأجل بقر السجود جبهته» .

ويقول ابن خلكان : وإنما قيل له الباقر لأنه تبقر فى العلم أى توسع ، والتبقر والتوسع يقول فيه الشاعر :

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبى على الأجبل[٤]

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٣٢٥ .
(٢) ابن نعيم : حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٥ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩
(٤) ابن خلكان : وفات – ٢ .

وهذا اختلاف ضئيل فى تسمية محمد بن على بالباقر مع الشيعة ، ولكن ابن تيمية ينكر «كونه أعلم أهل زمانه» إنه يرى أن هذا القول يحتاج إلى دليل ، ويرى أن الإمام الزهرى وهو من أقران محمد بن على ، هو عند الناس أعلم منه . ولكن ابن تيمية يعترف أنه أخذ الحديث عن جابر ، وأنه روى عنه عدداً كبيراً من الأحاديث الصحيحة ، ودخل على جابر مع أبيه على بن الحسين بعد ما كبر جابر . وكان جابر من المحبين لهم رضى الله عنهم ، ويرى ابن تيمية أن الباقر أخذ الحديث أيضاً عن أنس بن مالك ، وابن عباس وأبى سعيد وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة ، وعن سعيد بن المسيب وعبد الله بن أبى رافع كاتب على . ثم روى عنه أبو إسحاق الهمدانى وربيعة بن عبيد أبو عبد الرحمن والأعرج وهو أسن من محمد بن على وابنه جعفر وابن جريج ويحيى بن أبى كثير والأوزاعى وغيرهم (١) وعمرو بن دينار (٢).

هذه صورة لمحمد بن على الباقر كتبها عالم من علماء السلف ، بل عالمهم الكبير المتأخر . وهى تدل دلالة واضحة على ما يكنه من احترام كبير له كإمام من أهل البيت ، نشر العلم الإسلامى ، وأخلص لأعظم جوانبه وهو جانب الحديث ، وكان ابن تيمية محدثاً مشهوراً ، فوضعه لمحمد بن على فى نسق المحدثين العظماء العدول يدل دلالة واضحة على ما كان للإمام الباقر من مقام علمى عظيم حتى فى أوساط السلف وأهل السنة والجماعة .

أما إنكار ابن تيمية كون الباقر أعلم أهل زمانه ، فهذا اتجاه سلفى من عالم اشتهر عنه تخطئة الناس جميعاً ، حتى إمامه أحمد بن حنبل ، بل الصحابة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم هو مزاج ابن تيمية الحار وهو يناقش ابن المطهر الحلى ، من عدم كون على وأولاده دون الناس أصحاب العلم وورثة الأنبياء ، وإليهم مرجع أمور المسلمين . وإذا كان ابن تيمية يذهب فى كثير من أحكامه شططاً ، فإن الشيعة يفعلون نقس الأمر . ودعواهم دعوى عريضة ، ولكن «كون الباقر أحد أئمة الاثنى عشرية» لم يمنع أيضاً ابن كثير الشافعى أن يقول عنه إنه «تابعى جليل ، كبير القدر ، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً ، وهو أحد من تدعى فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثنى عشر ، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم ولا يدين بما وقع فى أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر . وذلك عنده صحيح فى الأثر» ويذكر ابن كثير أن الباقر قال : ما أدركت أحداً من أهل بيتى إلا وهو يتولاهما ، رضى الله عنهما ويذهب ابن كثير إلى أنه روى عن غير واحد من

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩ .

الصحابة . كما روى عن جماعة من كبار التابعين : أى أنه كان من كبار رجال الحديث من أهل السنة (١) .

ثم نأتى إلى موقفه من المعتزلة . لقد رأينا موقفه كمحدث ، وأهل الحديث فى المدينة كرهوا «الكلام فى الدين» واعتبروه مراءاً . وأتى واصل بن عطاء إلى المدينة . وتتلمذ عليه أخوه زيد بل سيطر واصل بن عطاء على زيد كما سنرى . وكره الباقر هذا كل الكراهية . وكان يقول لجابر الجعفى «يا جابر لا تخاصم ، فإن الخصومة تكذب القرآن» وهو يحدد الخصومة هنا بقوله «لا تجالسوا أصحاب الخصومات . فإنهم الذين يخوضون فى آيات الله» وكانت مسألة الفاسق شغل المجامع الإسلامية فسأله جابر «أكان منكم أهل البيت أحد يزعم أن ذنباً من الذنوب شرك . . . ؟ قال : لا .(٢)» وهو يرى أن «شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه» ويؤكد ثانية كراهيته للكلام . حين يقول : «إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب وتورث النفاق» الذين يخوضون فى آيات الله هم أصحاب الخصومات (٣) ويورد الشهرستانى مناظرة جرت بين الباقر وأخيه زيد لأنه «كان يتلمذ لواصل بن عطاء ويقتبس العلم ممن يجوز الخطأ على جده فى مقال الناكثين والقاسطين ومن يتكلم فى القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت ومن حيث إنه كان يجعل الخروج شرطاً فى كون الإمام إماماً ، حتى قال له يوماً : على قضية مذهبك والدك ليس بإمام ، فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج (٤) وتنسب هذه المناظرة إلى جعفر الصادق ، وبخاصة أن خروج زيد كان بعد وفاة أبى جعفر الباقر ، ومن المحتمل أن الأخوين قد تناقشا بادئ الأمر ، وحاول الباقر أن يرد أخاه عن عزمه على الخروج .

ونرى ابن كثير يذكر أن محمد بن على قال «القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق (٥)» وهذا نص خطير يثبت أن الإمام الباقر أزعجه تماماً الأصل المعتزلى : أن كلام الله مخلوق ولكن القول المنسوب إليه «أنه لا جبر ولا اختيار» فمن الثابت أنه لابنه جعفر الصادق .

وأخيراً نأتى إلى مسألة زهد الباقر وتصوفه ، فقد حاول الكثيرون من المتصوفة والزهاد وضع الباقر فى سلسلة الزهد والتصوف . وحاولوا أن يثبتوا انتقال العلم اللدنى إليه خلال البشارة بمولده . ولكن تحليل كلمة الباقر نفسها يثبت العكس تماماً فقد قيل له الباقر ، لأنه بقر العلم أى شقه ، وعرف أصله وخفيه وتوسع فيه» (٦) والمقصود بالعلم هنا علم الحديث ، واستفاضت الآثار فى أنه محدث ، وتابعى

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩-٣١١ .
(٢) ابن سعد : طبقات . . ج ٥ ص ٢٣ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية . . ج ٩ ص ١١٣ .
(٤) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٥١ . ٢٥٢ .
(٥) ابن العماد : شذرات . . ج ١ ص ١٤٩ .
(٦) ابن كثير : البداية ج ٩ ص ٣٠٩ .

مدنى ثقة بل ينقل ابن سعد عنه قوله «إنّا آل محمد نلبس الخز واليمنة والمعصفرات والممصرات (١)» .
وقال ابن حنيف : «رأيت أبا جعفر متكئاً على طيلسان مطوى فى المسجد . وقال محمد بن عمر : ولم يزل ذلك فعل الأشراف وأهل المروءة عندنا . الذين يلزمون المسجد يتكئون على طيالسة مطوية سوى طيلسانه ورداثه الذى عليه (٢) وقد أوردت هذه النصوص لكى أصل إلى أن محمداً الباقر لم يكن زاهداً . بمعنى اتخاذه الزهد نظاماً معيناً له قواعده وأصوله . وقد كره أيضاً زهد الغلاة . إنه إنما كان محدثاً عابداً أو زاهداً على طريقة أهل السنة .

ولكن نرى فى الآن نفسه نصاً يقدمه لنا ابن كثير يقول فيه «وسمى الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم وكان ذاكراً خاشعاً صابراً . وكان من سلالة النبوة . رفيع النسب . عالى الحسب . وكان عارفاً بالخطرات . كثير البكاء والعبرات معرضاً عن الجدال والخصومات» وينبغى أن نفسر النص فى حدوده ، وهى حدود عالم الحديث ، فعالم الحديث الحق – سنياً كان أو شيعياً – له زهده الخاص ، وهو يختلف عن زهد غيره . فهو يلتزم بالقرآن والسنة . ولا تنبثق معانى زهده من أى مؤثر خارجى مسيحى أو هندى أو فارسى أو غنوصى على الإجمال . إنه يتحرى الحديث تحرياً علمياً ، ولا يتعبد إلا على ما ثبت له صدقه . فالذكر والخشوع والصبر ومعرفة الخطرات وكثرة البكاء والعويل كانت سمة لمحدثى الإسلام الحقيقيين . بل كانت سمة للمعتزلة . وكانوا أيضاً يتحرون الدقة الكبرى فى الأخذ بالأحاديث . فكان زهد الباقر – إذا كان زاهداً – هو الزهد الذى عرفه علماء الحديث فى الإسلام وعرفوا به . وفى ضوء هذا نستطيع بسهولة فهم أقواله فى الفقر والزهد . فتفسير قوله تعالى «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا» الغرفة الجنة . بما صبروا على الفقر فى الدنيا . ثم يذكر الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر . وقد يذهب الصوفية بعد ذلك إلى أنه يضع الذكر فوق الصلاة وهذا خطأ . إننا نرى ابن عباس – ولم يكن ابن عباس زاهداً – يقول نفس القول : لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذاكر .

ثم يذكر جابر بن يزيد الجعفى عنه أنه قال له : يا جابر إنى لمحزون وإنى لمشتغل القلب . قلت : وما حزنك وما شغل قلبك ؟ قال يا جابر : إنه من دخل قلبه صافى دين الله عز وجل شغله عما سواه . يا جابر ما الدنيا ؟ وما عسى أن تكون ؟ هل هى إلا مركباً ركبته ؟ أو ثوباً لبسته أو امرأة أصبتها ؟ يا جابر إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأسنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار . إن أيسر أهل الدنيا مؤونة ، وأكثرهم لك معونة . إن نسيت ذكروك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوالين

(١) ابن سعد : طبقات . . ج ٥ ص ٢٤٥ . (٢) ابن كثير : البداية ج ص ٣١٦ .

بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قطعوا لمحبة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث نزلها مليكهم كمنزل نزلوه ، ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكماء أصبته فى منامك ، فلما استيقظت إذا ليس فى يديك منه شيء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته »(١) وينبغى أن نلاحظ أن الكلام يبدو زهداً بلا شك ، ولكنه زهد من نوع خاص يبعده تمام البعد عن حركة الزهد العام التى عاصرته إنه أقرب إلى الحكم وليس صادراً عن زفرة حرى ، كما نراها عند معاصريه من الزهاد ، إنه كلام محدث عابد معلم للمسلمين . ولا نرى كلمة الزهد على الإطلاق فى كلماته أوحتى حكمه . وكذلك نراه يتكلم عن الخطرات ، وهى ليست من نوع خطرات النفس عند الزهاد والصوفية ، بل يفسر بها اليقين فيقول « الإيمان ثابت فى القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب ، فيصير كأنه زبر الحديد ، ويخرجه منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلباً شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر »(٢).

ثم هو يتابع أباه فى سن البكاء للمسلمين فيقول : ما اغرورقت عين عبد بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار ، فإن سالت على الخدين ، لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمعة فإن الله يكفر بها بحور الخطايا ولو أن باكياً بكى من خشية الله فى أمة رحم تلك الأمة »(٣) وقد استغل الصوفية فيما بعد كل هذا وأدخلوا الباقر فى تيار الزهد العام . ونرى بشراً الحافى يقول : سمعت سفيان الثورى يقول : سمعت منصوراً يقول عن الباقر : الغنى والفقر يحولان فى قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أو طفاه(٤) » وأخيراً يقول الباقر : والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد »(٥) وهو بهذا يضع العلم فوق العبادة والحديث فوق الزهد .

أما ما تذكره كتب الشيعة من ناحية وكتب طبقات الصوفية من ناحية أخرى عن كون الباقر زاهداً ، فلا يثبت أمام النقد العلمى لوضع الباقر فى إطار الزهد والتصوف فليس قوله « قال الله فى الصيد . ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ؛ فقتل الصيد أعظم أم قتل النفس التى حرم الله »(٦) قول متصوف هذا قول فى كراهة القتل،ولكنه يقول فى نص يذكره صاحب الحلية ، كما يذكره أيضاً ابن كثير « إن الله يلقى فى قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا ، وظهر مهدينا ؛ كان الرجل منهم أجرأ من ليث وأمضى من سيف »(٧) وإذا كان النص الأول فى الزهد (وهو ليس كذلك) ؛ فالنص الأخير

---

(١) ابن كثير : البداية . ج ٩ ص ٣٠٩ .
(٢) نفس المصدر : نفس الصحيفة .
(٣) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .
(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ١٨٤ ؛ وابن كثير : البداية ج ٩ ص .
(٥) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .
(٦) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .
(٧) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .

ليس زهداً . والنقد الباطني للنصوص يحتم علينا مع ذلك أن ننكر صدور هذا النص الأخير عنه ، فقد ذكر فيه مصطلح القائم ، وهو ما أنكره على أخيه زيد ، كما ذكر فيه المهدى – وهو مصطلح كان يستخدمه الغلاة من حوله ، وقد أنكر الغلاة ، وكان يقول : «شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه» ، وكان يقول : «اللهم إنى أبرأ إليك من المغيرة بن سعيد وبيان» (١).

وقد حاول الدكتور الشيبي ببراعة أن يثبت زهد الباقر وصوفيته وأورد النصوص الكثيرة التى تؤيد فكرته : منها نص ابن حجر فى الصواعق المحرقة الذى يقول فيه «وله من الرسوم فى مقامات العارفين ما تكل عنه ألسنة الواصفين ، وله كلمات فى السلوك والمعارف» ، ثم يحاول الشيبي أن يثبت أن بذرة نظرية الحب الصوفى وجدت عند الباقر . ويورد عن فريد الدين العطار فكرة الملك أو السلطان الروحى ، وأن الباقر كان يقضى ليله وهو يردد فى صوت عال «إلهى وسيدى ، حل الليل وانتهت ولاية تصرف الملوك وظهرت النجوم ونام الخلائق» ثم يورد الشيبي حديث عبد الله بن المبارك الصوفى (المتوفى سنة ١٨١ هـ) المشهور عن تجلى محمد الباقر له – كتجلى الخضر لكبار الصوفية ، وأن محمداً الباقر أنشده :

فنحن على الحوض رواده ... نذوده ونسعد وراده
فما فاز من فاز إلا بنا ... وما خاب من حبنا زاده
ومن سرنا نال منا السرو ... ر ومن ساءنا ساء ميلاده
فمن كان حقاً لنا غاضباً ... فيوم القيامة ميعاده (٢)

وأرى أن هذا تصوير الصوفية له ، ولكن ليست آراءه هو ، وأحوال الصوفية أنفسهم ينسبونها إليه ، وليست أحواله هو إن نظرية الحب الصوفية لها بلا شك أصولها القرآنية ، ولابن تيمية نفسه نظرية خطيرة فى الحب الإلهى ، ولكن الحب الإلهى أدى عند صوفية الحلول من ناحية وصوفية وحدة الوجود من ناحية أخرى إلى نظريات تخالف الحب الإلهى القرآنى . وهذا ما نأى عنه أهل البيت جميعاً ، وزهاد الصوفية من السنة والشيعة جميعاً ، ولم يكن تطور هذه عن تلك .

وأخيراً – لقد كان لمحمد بن على الباقر أعظم مكان لدى أهل السنة والجماعة ولدى الشيعة . إنه لدى الأولين . إمام أهل البيت «وبقية فاطمة العظيمة فى الدنيا ، ومحدث المدينة الكبير ، وكان هو الإمام الخامس لدى الشيعة الاثنى عشرية والإسماعيلية .

---

(١) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٢) الشيبي : الصلة . . ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

الفصل الثالث

الزيدية

زيد بن على

لم يكن لمحمد الباقر أثر كبير فى تطور العقيدة الشيعية ، لقد كان إماماً كبيراً من أئمة المسلمين . شغل بالعلم والحديث واحتل مكانه العظيم كمحدث ممتاز فى كتب السنة وأهل الشيعة ، ولكن لم يكن له أبداً هذا الحماس الدينى المشتعل الذى ينشئ حوله فرقة أومذهباً أويثير حركة ثورية فى العالم الإسلامى ، كانت حياته رتيبة خالية من الإثارة ، وجاء الشيعة المتأخرون فحاكوا حوله الأسطورة ، ونسبوا له الولاية ، والعلم الإلهى الباطن الذى يستخرج به معانى القرآن الحقيقية ، واعتبروه فى سلك الغنوصيين من أهل البيت . ولكن حين ننتقل إلى بحث حياة أخيه الأصغر زيد وعقائده ، نجد سيلاً عارماً من الأخبار ، وحياة ديناميكية قابلت جميع الاتجاهات والتيارات الفكرية والسياسية فى عصره ، وقصة مثيرة أشد ما تكون الإثارة ، وحية أشد ما تكون الحيوية .

ولد زيد بن على لأبيه على زين العابدين (عام ٨٠ هـ) عن أم سندية أهداها له المختار بن أبى عبيد . ومات أبوه وهو فى الرابعة عشرة من عمره فكفله أخوه الأكبر محمد الباقر وكان لمحمد الباقر ولد فى سن زيد وهو جعفر الصادق . ويبدو أنه أخذ عن أبيه زين العابدين العلم فى باكورة حياته ، ثم عن أخيه محمد الباقر بعد وفاة أبيه ، ولكن لم تطمئن نفس الفتى العلوى الشغوف الطلعة إلى الحياة المدنية الرتيبة ولا إلى طريقة الحياة التى عاشها أبوه بعد محنة كربلاء ، وعاشها أخوه الباقر أيضاً متبعاً سنة أبيه على زين العابدين . بدأ الفتى رحلاته إلى الكوفة ، ثم زارها مراراً ، ثم مضى إلى البصرة ، يقابل علماءها ، ويناقش مفكريها وما أكثرها فى ذلك الوقت . وفى البصرة قابل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، ويذهب الشهرستانى إلى أن « زيداً تتلمذ على واصل ، حين أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم » ويؤيد الشهرستانى هذا بمناقشة جرت بين زيد وبين أخيه الأكبر محمد الباقر يعتب الباقر فيها على أخيه أن يأخذ العلم عن واصل بن عطاء وهو ممن يجوز الخطأ على جده الأكبر على فى قتال الناكثين والقاسطين من أهل الشام ، وممن يتكلم فى القدر على غير ما يذهب إليه أهل البيت ، ومن

حيث إن زيداً كان يشترط الخروج شرطاً فى كون الإمام إماماً. فقد قال له الباقر فى أثناء المناقشة «على قضية مذهبك والدك ليس بإمام، فإنه لم يخرج قط، ولا تعرض للخروج»[١].

وقد حاول العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة أن يثبت أن الإمام زيداً لم يتلمذ على واصل بن عطاء، وإنما ذاكره فى آرائه وزامله فيها، وبخاصة أن واصل بن عطاء إنما أخذ مذهبه عن رجل من أهل البيت هو أبو هاشم بن محمد بن الحنفية[٢]، وسواء أصحت تلمذة زيد لواصل بن عطاء أم مذاكرته له فى المذهب، فإن آراء المعتزلة كانت هى المرحلة الحاسمة فى تفكير الفتى العلوى. لقد أتى إلى المدينة، وهو على معرفة تامة بكثير من أصول واصل. وها هو يناقش أخاه شيخ البيت العلوى فيها، ويكاد يعلن أن أباه لم يكن إماماً، بل كان فى نظره رجل من صالحى أهل البيت، كما أن اعتناق زيد المذهب القدرى أقلق محمداً الباقر. ومن الخطأ الشديد القول بأن على زين العابدين وابنه الباقر كانا قدريين. إنهما كانا من رجال الحديث، وإذا صح أن الباقر هو أول من قال: لا جبر ولا اختيار، وإنما هو أمر وسط وتفويض، فإنه يكون إذن من سلف أهل السنة، وهذا الأمر الوسط هو فى نهاية الأمر جبر. وأخيراً إن اشتراط الخروج فى كون الإمام إماماً إنما هو نابع من أصل المعتزلة الخامس «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر». وقد كان هذا الفتى العلوى مخلصاً لآرائه وعقائده، فخرج على هشام بن عبد الملك، وفاز بالشهادة فى طرقات الكوفة، كما فاز بها من قبل فى الكوفة رأس البيت العلوى «على بن أبى طالب» وقد كان على مثل زيد الأعلى، وكما فاز بها أيضاً الحسين بن على فى كربلاء على أطراف الكوفة القريبة، بل مثل زيد بن على مع هشام بن عبد الملك نفس قصة الحسين ابن على مع يزيد بن معاوية. خرج الحسين بن على على يزيد بن معاوية العاتى، وقتله عامله على الكوفة عبيد الله بن زياد، ولم يسلم نفسه، بل مات تحت ظلال السيوف. وخرج زيد بن على على هشام القاسى الظالم المتحجر، وقتله يوسف بن عمر الثقفى فى كناسة الكوفة، ومات أيضاً بسهم، ولم يسلم نفسه. وكما خدع أهل الكوفة حسيناً عليه السلام، خدعوا - هم أنفسهم - زيداً.

وقد كتب المؤرخون الصحائف الكثيرة عن تعرض زيد بن على فى حياته لأفظع أنواع الإهانات من عامل هشام بن عبد الملك على المدينة وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث. كان هذا الأخير يندفع فى عداوته ومؤامراته لأهل البيت، بل كان يدفع أعوانه لسب فاطمة الزهراء فى مسجد أبيها فى المدينة، بل يدفع بعضا من آل البيت لانتقاص ابن عمهم الكبير زيد بن على[٣]. والفتى العلوى ساكت على الضيم، كاظم للغيظ عاف عن الناس. ويضيق زيد بن على بالوالى وبالناس، فيذهب إلى دمشق،

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠.

(٢) الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة: الإمام زيد.

(٣) الكامل: ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨-٨٥.

بطلب مقابلة هشام بن عبد الملك ، يشكو إليه ظلم عامله ، ولكن هشاماً الخليفة العاتى – يتذكر كيف حيل بينه وبين الحجر الأسود فى حجه وكيف وقف الناس إجلالاً لعلى بن الحسين زين العابدين والد زيد وأفسحوا له المكان – فيرفض مقابلة زيد ، ولكن زيداً – وهو العالم الفقيه – أراد أن يخلى ضميره من خروجه على هشام . فأصر على مقابلة الخليفة فلما قابله . تنابز الاثنان وفقد هشام عقله ، فقال له : «أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة . وأنت ابن أمه» فرد زيد : «إن الأمهات لا يقعدن بالرجل عن الغايات وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحق صلى الله عليها وسلم . فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا . وجعله للعرب أبا . فأخرج من صلبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وسلم . فتقول لى هذا وأنا ابن فاطمة وابن على» وقام وهو يقول :

شرده الخوف وأزرى به   كذلك من يكره حر الجلاد
منخـــرق الخفين. يشكو الوجى   تنكبه أطراف مرو حداد
قد كان فى الموت له راحة   والموت حتم فى رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة   يترك آثار العدى كالرماد (١)

ومرة أخرى يستدعيه هشام بن عبد الملك ويأمره أن يشخص إلى والى الكوفة القاسى يوسف بن عمر الثقفى . فلما سأل زيد الخليفة عن سر تسييره إلى هذا الوالى القاسى أخبره هشام أن خالد بن عبد الله القسرى ، والى هشام المعزول عن الكوفة ادعى لدى الوالى الحالى أنه ترك ودائع لدى زيد بن على وداود بن على بن عبد الله بن عباس ومحمد بن عمر بن أبى طالب – أى لدى العلية من بنى هاشم – وأقسم زيد أنه لم يأخذ منه وديعة ولا غيره ولكن هشاماً قال : لا أصدقك . وعجب ابن رسول الله ألا يصدق يمينه رجل من بنى مروان ، وجده الأكبر كان طريد رسول الإسلام . ولكنه تمالك نفسه وقال له : لا توجه بى إلى عبد ثقيف يتلاعب بى . ولكن هشاماً أصر على أن يذهب زيد إلى الكوفة حتى يواجه بخالد بن عبد الله القسرى المسجون . وخرج زيد يقول : «والله إنى لأعلم أنه ما أحب الحياة قط أحد إلا ذل» .

ويذكر اليعقوبى أن هشاماً خشى بعدها من سفر زيد إلى الكوفة فأرسل إلى يوسف بن عمر يقول له : «إذا قدم عليك زيد بن على فاجمع بينه وبين خالد ، ولا يقيمن قبلك ساعة واحدة . فإنى رأيته رجلاً حلو اللسان شديد البيان خليقاً بتمويه الكلام ، وأهل العراق أسرع شىء إلى مثله» وكأن هشاماً أحس بخطورة زيد ، فأرسل إلى عامله يحذره منه .

وقدم زيد الكوفة ، فلما دخل إلى يوسف قال له : لم نقلتنى من عند أمير المؤمنين . . . ؟ فقال

---

(١) المسعودى : مروج الذهب . جـ ٣ ص ١٨٢ .

يوسف : ذكر خالد بن عبد الله أن له عندك ستمائة ألف درهم . ثم أحضر خالداً وهو فى الحديد فقال له يوسف : هذا زيد بن على فاذكر مالك عنده . فقال خالد : والله الذى لا إله إلا هو مالى عنده قليل ولا كثير ، ولا أردتم بإحضاره إلا ظلمه . فتبين لزيد وللناس أن إحضاره لم يكن إلا لإهانته وتحقيره، وقد كان زيد حينئذ – وبعد وفاة أخيه – شيخ العلويين وكبيرهم .

وأراد زيد أن يبقى فى الكوفة أياماً ، ولكن يوسف بن عمر قال له : إن أمير المؤمنين أمرنى أن أخرجك من الكوفة ساعة وصولك . قال : فأستريح ثلاثاً ثم أخرج . فرفض يوسف أن يدعه حتى ساعة واحدة . فخرج زيد فى حراسة جند يوسف حتى وصلوا إلى العذيب ، فانصرف الجند . ثم انكفأ زيد راجعاً إلى الكوفة . فاجتمع إليه من بها من الشيعة وبلغ يوسف بن عمر ، فوثب بينهم ، وكانت بينهم ملحمة ثم قتل زيدبن على داخل الكوفة ونصبت رأسه على قصبة ثم حين ظهر ابنه يحيى بن زيد فأرسل الوليد بن يزيد إلى يوسف : «إذا أتاك كتابى هذا فانظر عجل أهل العراق فأحرقه وانسفه فى اليم نسفاً» فجمع وأحرق وذرى نصفه فى الفرات ونصفه فى الزرع وقال يوسف : والله يا أهل الكوفة لأدعنكم تأكلونه فى طعامكم وتشربونه فى مائكم ، تلك هى القصة التى ذكرها اليعقوبى – أقدم مؤرخ شيعى – ثم ذكرها من بعده المسعودى وأضاف أنه خرج مع زيد القراء والأشراف وأن أهل الكوفة خذلوه وأنه تمثل حينئذ :

أذل الحياة وعز الممات وكلا أراه طعاماً وبيلا
فإن كان لابد من واحد فسيرى إلى الموت سيراً جميلا

والاحظ على كلتا الروايتين محاولة تفسير خروج زيد بن على بما لاقاه من عنت واضطهاد ومحن من عامل هشام بن عبد الملك على المدينة ، ثم بما لاقاه من هشام وعامله على الكوفة يوسف بن عمر . وهذا خطأ ، فزيد بن على إنما خرج لإثبات الأصل المعتزلى أولاً : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وثانياً : لكى يثبت للناس جميعاً – ولم يستخدم أبداً كلمة الشيعة – أن العلويين على أتم استعداد للشهادة فى سبيل الله ، ولم يدع علوياً آخر معه بل سار إلى الملحمة وحيداً مع ابنه يحيى ، وقتل هو وحده ، ونجا ابنه لكى يبدأ الجهاد من جديد بعد فترة وجيزة . وقد كان يعلم أنه ميت لا محالة فى هذه المعركة ، وقد بشره أبوه بالشهادة من قبل ، وعرفه أنه المصلوب فى الكناسة أى فى كناسة الكوفة ، وكذلك أخوه محمد الباقر ، ويبدو أن المهدية أيضاً قد نسبت إلى زيد بن على ، وأنه عرف بها ، ويذكر المسعودى أن شاعراً من شعراء بنى أمية ذكر بعد مقتل زيد :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب(١)

(١) المسعودى : مروج جـ ٣ ص ١٨٢ .

ومكث زيد مصلوباً خمسين شهراً بكناسة الكوفة ، فلما ظهر ابنه يحيى فى عهد الوليد بن يزيد – كتب الوليد إلى عامله بالكوفة أن أحرق زيداً بخشبته ، والملاحظ أن المسعودى واليعقوبى لم يذكرا إطلاقاً السبب فى انهزام أصحاب زيد عنه فى المعركة ولكن أبا الفرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين يقول إن زيداً «قد تعجل الخروج قبل الأجل الذى بينه وبين الناس ، وذلك لانكشاف أمره ، ومعرفة يوسف ابن عمر بموعد بدء الحركة . وقد استطاع يوسف بن عمر أن يحول بين السواد الأعظم من أهل الكوفة وبين زيد ، فلما نادى أبو الجارود بشعار زيد – يا منصور أمت – لم يوافه سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً ، فسأل زيد عن الناس وكان قد بايعه من قبل خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان وجرجان والرى . فلما أجيب زيد «هم محصورون فى المسجد ، قال : «لا والله ما هذا لمن بايعنا بعذر» ويذكر أبو الفرج أنه حين اشتد القتال سأل زيد أحد عيون أتباعه من أهل الكوفة وهو نصر بن خزيمة ، فقال «أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية ؟» – أى أنهم دعوه كما دعوا جده الحسين ، ثم انصرفوا عنه وأسلموه لعدوه – فقال نصر بن خزيمة : جعلنى الله فداك ، أما فوالله لأضربن بسيفى هذا معك حتى أموت ، وقاتل زيد مع الفئة القليلة التى تابعته ، وهزم جند الخليفة ، حتى وصلوا إلى المسجد وصاح نصر بن خزيمة يناديهم «يا أهل الكوفة اخرجوا من الذل إلى العز وإلى الدين والدنيا : ولكن ما من مجيب بل إن فاطمة الزهراء تسب علناً ، ويسبها أهل الشام . وأهل الكوفة نظارة ينظرون فقط ، ولا يشاركون فى قتال (١)» . فلم يكن إذن حصر الناس فى المسجد هو السبب فى تخلى أهل الكوفة عن زيد ، ولكن أبا الفرج سكت أيضاً عن ذكر السبب ، مع أنه من الواضح تماماً أن هناك سبباً ما دعاهم إلى خذلانه .

أما مؤرخو أهل السنة والجماعة فيرون أن السبب فى تخاذل أهل الكوفة عنه هو مذهبه الرئيسى فى الإمامة «وهو جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل» ومعنى هذا أنه أقر بإمامة أبى بكر وعمر وعثمان بل إن الشهرستانى نقل إلينا نص كلام زيد «كان على بن أبى طالب أفضل الصحابة ، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلب العامة فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين على عليه السلام لم يجف من دماء المشركين من قريش بعد والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر . كما هى – فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد – وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق فى الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ ، وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماماً والأفضل قائماً فيرجع إليه فى الأحكام ، ويحكم بحكمه فى القضايا (٢)» وأورد

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٩٦-١٠٦ . (٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

نفس القصة ابن كثير[١] وغيرهما من المؤرخين. وقد تبين لشيعة الكوفة وهم فئات ثلاث، – بقايا الكيسانية والغلاة وأتباع ابن أخيه جعفر الصادق – الخلاف الكبير بين عقائدهم وبين الأصل الذى ينادى به؛ إن قوله بإمامة المفضول يهدم نظرية الوصاية وهى التى قام عليها أساس المذهب الشيعى فى مختلف تطوراته. ولذلك رفضوه ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه، وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه فسميت رافضة [٢]. وهذا أول ظهور لكلمة الرافضة كمصطلح ينطبق على جمهور الشيعة أو ما عرفوا فيما بعد – بالشيعة الإمامية – أتباع جعفر الصادق كما أطلق على الشيعة المتأخرة الاثنى عشرية.

وهناك دليل آخر يثبت ظهور هذا المصطلح إنما كان فى عهد إمامه جعفر الصادق، وإن كان أطلق الاسم هنا شخصية من الغلاة، وهو المغيرة بن سعيد العجلى والنوبختى يذكر أن الشيعة وأصحاب أبى عبد الله جعفر بن محمد تبرأوا من المغيرة ورفضوه، فزعم أنهم رافضة، وأنه هو الذى سماهم بهذا الاسم [٣] وسواء أطلق اللقب زيد بن على أو المغيرة بن سعيد فإنه يشير بوضوح إلى أتباع جعفر الصادق أو بالتالى ما يعرفون بالشيعة الإمامية. ومنذ ذلك الحين أطلق اسم الروافض على الشيعة جميعاً – اللهم إلا بعض فرق الزيدية التى أقرت بشرعية خلافة أبى بكر وعمر – فالروافض إذن إبان خروج زيد بن على أنكروا عليه حركته فى صورة نصح أحياناً، كما فعل جعفر بن محمد فى المدينة، وكان جعفر بن محمد ينكر على زيد صلته بالمعتزلة أشد إنكار، ووصل الأمر بينهما إلى حد التلاحى الشديد بالكلام وذلك حين أتى واصل بن عطاء المدينة، وذهب إليه جعفر بن محمد ينكر عليه آراءه، بل مجيئه إلى المدينة، ويشتبك زيد والزيدية مع جعفر الصادق وينسبون معارضة جعفر لواصل ابن عطاء فى آرائه إلى حسده له. أنكر جعفر – متابعاً لأبيه – صلة زيد بواصل ثم أخلص له النصح فى عدم خروجه. لاجرم بعد ذلك أن رفضه أتباع جعفر بن محمد – وأطاعوا دعوة يوسف بن عمر فى الالتجاء إلى المسجد، وأقاموا فيه لا يلقون أذناً إلى صيحة الحرب يطلقها زيد وفئته القليلة وقد سموا فيما بعد، بأصحاب المسجد، وأرسل إليه أيضاً – وهو يعنى قواه فى الكوفة – عبد الله بن الحسن يثبطه عن الموقعة ويقول له: «فإن أهل الكوفة نفخ فى العلانية، خور السريرة هرج فى الرخاء خرع فى اللقاء، تتقدمهم ألسنتهم، ولا تشايعهم قلوبهم، ولقد تواترت إلى كتبهم بدعوتهم، فصممت عن ندائهم، وألبست قلبى غشاء عن ذكرهم، يأسا منهم وإطراحاً لهم، وما لهم مثل إلا كما قال على بن

---

(١) ابن كثير: البداية ج ٩ ص ٣٣٠.

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل ج ١ ص ٢٠١ واليعقوبى: تاريخ ج ٤ ص ٨٦٤.

(٣) النوبختى: فرق الشيعة ص ٦٣.

أبي طالب : إن أهملتم خضتم ، وإن حوربتم خورتم ، وإن اجتمع الناس على إمامة طعنتم ، وإن أجبتم إلى مشقة نكصتم » (١) أرسل إليه عبد الله بن الحسن ينصحه وهو في مستهل المعركة ، يبايع له الناس ، ينصحه في الظاهر ، وكم جرعه عبد الله بن الحسن الغيظ في المدينة أمام والي هشام ودعاه بابن السندية وزيد يكظم غيظه ، ولا يظهر لبني هاشم غير المودة الصافية والإيثار الكامل . وكان عبد الله بن الحسن يكره خروج زيد ؛ لأمر في نفسه : هو إعداده ابنه محمداً ليكون مهدي الإسلام ، ولعله كره أن يأخذها زيد ، فيفوت عليه آماله في ابنه محمد .

ثم تأتي إلى الغلاة الغنوصيين ، وقد كره هؤلاء زيداً أيضاً ، فقد كان زيد على صلات بواصل وواصل والمعتزلة أكبر أعداء الغنوصية . اجتمع كل هؤلاء في موقف عدائي تجاه زيد . ويرسل هشام إلى واليه يوسف بن عمر يقول له « إنك لغافل . وإن زيد بن علي غارز ذنبه بالكوفة يبايع له ، فألح في طلبه واعطه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله » .

وأريد هنا أن أصل إلى النتيجة القاطعة في حقيقة زيد بن علي . إنه لم يكن شيعياً على الإطلاق ، ولم تكن حركته للشيعة ، وإنما هي حركة إسلامية ، استهدفت الخروج على الإمام الظالم من عالم من علماء المسلمين يمتازعن غيره من العلماء أنه من دوحة النبوة ومن أبناء علي عليه السلام . ويدعم رأيي هذا دعوته إلى أصحابه وهو يعلن الجهاد « إني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإحياء السنن وإماتة البدع فإن تسمعوا كان خيراً لكم ولي ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل (٢) » ثم كانت صيغة بيعته هي « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالم والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ونصر أهل الحق ، أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قالوا : نعم ، وضع يده على أيديهم ويقول : عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ﷺ ، لتفين ببيعتي ، ولتقاتلن عدوي ، ولتنصحن لي في السر والعلانية . فإذا قال المبايع : نعم ، مسح يده على يده ، وقال : اللهم اشهد (٣) فلم يكن إذن في بيعته وجهاده يذكر نصاً أووصية أوحقاً إلهياً . وإنما كان رجلاً من أهل البيت ، ساد علماء المسلمين في عصره بعلمه وديانته ، « كان وهو شاب يذكر الله عنده فيغشى عليه حتى يقول القائل : ما يرجع إلى الدنيا » (٤) . وذكروا عنه أنه لم يهتك الله محرماً منذ عرف يمينه من شماله ، وكانت أسارير النور في وجهه « ولذلك تابعه أهل النسك ولا يعدلون به أحداً » ثم أصبح في العلم في أوجه ، أخذ أبو حنيفة ، وعدد كبير من العلماء عنه ، ثم كان بعد – فتى بني هاشم ، أشجع العرب قاطبة ، وابن فاطمة الزهراء ، ويقول عبد الله بن مسلم بن بابل : خرجنا مع زيد بن علي إلى

---

(١) ابن الأثير : تاريخ ج ٥ ص ٨٧ .
(٢) ابن كثير : تاريخ ج ٩ ص ٣٣٠ .
(٣) ابن الأثير : ج ٥ ص ٨٦ .
(٤) الاصفهاني : مقاتل . . ص ٦٣ .

مكة فلما كان نصف الليل ، واستوت الثريا فقال : يا بابلى أما ترى هذه الثريا أترى أحداً يناالها ؟ قلت : لا . قال : والله لوددت أن يدى ملصقة بها ، فأقع إلى الأرض أو حيث أقع ، فانقطع قطعة قطعة ، وأن الله أصلح بين أمة محمد ﷺ وكان يدعى بمكة «حليف القرآن» (١).

وأخيراً – رأى عالم الإسلام الكبير أنه لابد أن يخرج على الإمام الظالم وخرج ، ولم يحارب معه أحد من الشيعة .

وهنا نتساءل من كان إذن أنصاره ورجاله . . . ؟ يمكننا أن نعدد هؤلاء الأنصار فيما يأتى :

أولاً : جماعة من عيون أهل الكوفة ممن أحبوا آل البيت . وأخلصوا لهم كل الإخلاص ، لم تمتزج عقائدهم بالغلاة ، ولم تشبهم شائبة الغنوصية المنتشرة فى أرجاء الكوفة ، ولم يؤمنوا بالرجعة ولا بعلم خاص ينسب للإمام ، وفى مقدمة هؤلاء معاوية بن إسحق الأنصارى وزياد الهندى ونصر بن خزيمة العبسى ، كانوا أشراف الكوفة ، بايعوا زيداً وقتلوا بين يديه وصلبوا معه بكناسة الكوفة . وجماعة آخرون قاتلوا معه ولم يقتلوا ومنهم سعد بن خيثم وسلمة بن ثابت .

ثانياً : التف حوله أهل العلم من الفقهاء ونقلة الآثار والفقهاء . عدد منهم أبو الفرج الأصفهانى : منصور بن المعتمر ، وأبا حنيفة النعمان . بل إن محمداً بن جعفر الصادق ، يقول : «رحم الله أبا حنيفة ، لقد تحققت مودته لنا فى نصرته زيد بن على وفعل ابن المبارك فى كتمانه فضائلنا (٢)» فأبو حنيفة إذن ممن أيدوا زيداً وقد أمده بالسلاح والمال ، وكان يقول ، من يأت زيداً هو من فقهاء الناس . وتراه ينكر على عبد الله بن المبارك الزاهد المشهور إخفاءه لفضائل أهل البيت ، ومن المعروف أن أبا حنيفة تتلمذ على زيد لمدة عامين . وسنراه أيضاً يمد إبراهيم بن عبد الله بن الحسين فى ثورته على أبى جعفر المنصور حين خرج باسم الزيدية فى البصرة فالمرجئية إذن وقفت فى شخص رئيسها أبى حنيفة مع الزيدية (٣).

ثالثاً : المعتزلة : كان زيد بن على يضع فى حيز العمل والتطبيق أصلهم الخامس «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» . وكان زيد من أصحاب واصل بن عطاء وقد أيده واصل كما أيد عثمان الطويل تلميذه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بل إن عثمان الطويل حين سئل : خرج هذا الرجل ، (أى إبراهيم بن عبد الله بن الحسين) وقعدتم عنه. فقال عثمان. ومن أخرجه غيرنا (٤)» . فثورة زيد بن على كانت ثورة إسلامية وخروجاً على خليفة دمشق هشام بن عبد الملك باسم الإسلام ، لا تمت إلى الشيعة

(١) أبو الفرج الاصفهانى : مقاتل الطالبين . ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٠٧ .

(٣) الاصفهانى : مقاتل الطالبين ص ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

بسبب ، ولذلك وقفوا منها إما موقف الحياد – كموقف جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن شيخى بنى هاشم – وإما موقف الخذلان ، كموقف شيعتهم فى الكوفة ، وإما موقف الشماتة – كموقف الغلاة – ولم يأبه زيد بن على بل حارب حرباً عنيفة فى طرقات الكوفة ، وكان فى متناول يده أن يقتل يوسف ابن عمر والى هشام بن الحكم ، وهزم جيش هشام مراراً ، ثم أصابه سهم فاستشهد ، ضارباً للمسلمين جميعاً أعظم المثل فى التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة .

ومن الملاحظ أن الزيدية فيما بعد أصبحت علماً على شيئين :

أولاً : جهاد الأئمة لبنى أمية ولبنى العباس بالسيف ، فكل من خرج اعتبر زيدياً .

ثانياً : العلم – إننا نرى أحد أعداء زيد بن على وهو حى – عبد الله بن الحسن – يذكره بعد موته ، لابن زيد الحسين بن زيد . فيقول : « وإن أدنى آبائك زيد بن على الذى لم أرفينا ولا غيرنا مثله » . ويقابله مرة أخرى فى مصلى النبى فيردد له نفس الأمر « إنى أدنى آبائك الذى لم يكن فينا مثله ، لا والله ماكان فينا مثله (١) » لقد قال عبد الله بن الحسن هذا ، بعد وفاة زيد ، وقد كان يسومه كما قلت من قبل الإهانة تلو الإهانة ويدعوه بابن السندية معيرًا لزيد أن أمه هندية الأصل . ثم نرى الفرع الآخر وقد أنكره شيخهم جعفر الصادق ، يعلن على لسان على الرضا « أن زيد بن على كان من علماء آل محمد » . أما العلماء جميعاً فأجمعوا على علمه الفياض وفقهه الواسع وفى مقدمتهم أبوحنيفة وسفيان الثورى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وهؤلاء كانوا من طبقته . أما تلامذته الذين أخذوا عنه ، فمنهم الفقيه المشهور منصور بن المعتمر ، وهو أحد رجال الصحيحين ، وهارون بن سعد العجلى ، وكان من شيوخ مسلم ، وسليمان بن مهران الأعمش الفقيه المحدث وغيرهم كثيرون . وقد نقل تلامذته العديدون علمه وفقهه إلى مختلف الأمصار الإسلامية ، غير أن أهم تلامذته هو أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى ، وهو الذى روى « المجموع » فى الفقه الزيدى وهو الذى ينسب إلى الإمام زيد ابن على .

آراء زيد بن على فى الإمامة والمهدية :

رأى زيد بن على اختلافات الفرق فى الإمامة : فالكيسانية تنادى بإمامة محمد بن الحنفية ومهديته ، وأنصار أخيه محمد الباقر ينادون بإمامته ، والغلاة تنادى بإمامة بعض آل البيت وبعض الدعاة من غير أهل البيت ، بل تعلن قدسيتهم وألوهيتهم . والعباسية تنادى بإمامة محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . والخليفة الأموى فى دمشق يحكم بالحديد والنار دار الإسلام ،

(١) نفس المصدر : ٢٦٢ .

وقد أخذ الملك غضباً . ورأى زيد أيضاً اختلافات الشيعة حول خلافة أبى بكر وعمر ، فمنهم السابون الذين يسبونهم ، ومنهم المكفرون – الذين كفروا الشيخين لسلبهم علياً خلافة الرسول . ورأى الأئمة – أباه وأخاه – يتولونهم ، إن ظاهراً أو باطناً ، كما يقول أهل السنة والجماعة ، وإن تقية كما يقول شيعتهم . ورحل زيد إلى الكوفة وإلى البصرة يستمع لكل هذا ، ويقابل الناس فى مجامعهم وحلقاتهم ، وانتهى آخر الأمر إلى مثال جده الأكبر على بن أبى طالب وإلى سنته ، واستخرج منها أصل الزيدية الأول فى الإمامة وهو «إمامة المفضول مع وجود الأفضل» فعلىّ أفضل المسلمين بعد رسول الله ، ولكن مصلحة الإسلام استلزمت تولية الإمامة لمن دونه فى الفضل ، وهو أبو بكر ثم عمر . وهنا ينهدم – كما قلت – أصل من أصول الشيعة ، وهو النص على علىّ والوصية له ، وهذا أول اختلاف جوهرى بين آراء زيد بن على والزيدية الخلص من بعده وبين الشيعة على مختلف فرقها ، ولقد رأينا كيف خذله شيعة الكوفة – وهو فى مستهل المعركة – حين أعلن هذا الأصل . وكان شيعة الكوفة يتبرأون من الشيخين . ويبدو أن زيداً بن على قد وضع هذا الأصل ونادى به ، لتبرير موقف جده على بن أبى طالب من خلافة أبى بكر وعمر تبريراً واقعياً ، فقد قبل على خلافة الشيخين ، وإن كان قد فعل هذا على مضض – كما تذكر بعض المصادر الشيعية – ومن المحتمل أيضاً أن يكون زيد بن على أعلن هذا الأصل تورعاً ، فقد ثبت له – كما ثبت للمؤرخين جميعا – أن خلافة كل من الصاحبين لم يشبها دنيا على الإطلاق ، بل كانت خالصة للدين .

وأخيراً . . إن علياً هو الخليفة الرابع من خلفاء محمد صلوات الله عليه لا نزاع فى ذلك ولا جدال . وهنا يقدم لنا زيد الأصل الثانى من أصوله وهو «الإمامة فى أولاد فاطمة عليها السلام ولا تجوز إمامة فى غيرهم (١)» . ولكن لا يجوز أن يكون واحد منهم بعينه إماماً ، بل «يجوز أن يكون كل فاطمى عدل زاهد شجاع سخى خرج بالإمامة – أن يكون — إماماً واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أم من أولاد الحسين» (٢) . فلا وصية إذن ولا نص لا على محمد بن الحنفية ، كما تدعى الكيسانية ولا على أولاد الحسين خاصة ، كما تدعى الإمامية ، ومع أن هذا النص الوحيد من بين قواعد الزيدية ، تفوح منه رائحة التشيع ، إلا أنه لم يوافق هوى فى نفوس فرقتى الشيعة الكبيرتين ، الكيسانية والإمامية ، وأغضب كلا منهما ، فالكيسانية تؤمن بإمامة علوى ليس بفاطمى ، والإمامية تؤمن بإمامة الفاطميين الحسينيين فقط . واشتراط الخروج سيؤدى إلى إنكار إمامة زين العابدين والباقر ، وسيهدم نظرية الاثنى عشرية كما سيهدم نظرية الإسماعيلية فى سلسلة الأئمة لديهم . ولكن إذا كانت المصلحة

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

تقتضى إمامة المفضول من غير آل فاطمة ، فهل يكون هذا الشرط إذن غير واجب التنفيذ فى بعض الأحيان ؟ لقد رأى هذا فى أصله الأول – وهو ولاية المفضول – وهو بصدد والد الفاطميين جميعاً على بن أبى طالب ، ما دامت المصلحة ، فالمصلحة هى الأساس لا الأفضلية ، ولكنه رأى أن يضع بأصله الثانى «إمامة فاطمى عادل وخروجه» موضع التنفيذ ، فخرج ، ووضع بهذا سنة الخروج ، أو بمعنى أدق أصبح الزيدية فيما بعد «خوارج» أيضاً ، لا يؤمنون بعقيدة الشيعة الإمامية ، ومن العجب أن زيداً لم يمثل إجماع أهل البيت فى خروجه ، فأخوه الأكبر نهاه قبل وفاته عن الخروج ، بل تواترت الأنباء أن أباه وأخاه وعمه الأكبر محمد بن الحنفية كانوا ينهونه عن الخروج ، ويعدونه – بعلم غيبى – أن يكون قتيل الكناسة ومصلوبها ، ولكن الفتى الذى يؤمن بالعقل ، كأصل للدين أبى وخرج ، واستن سنة الخروج .

وقد أداه النظر فى حقيقة الأئمة من قبله إلى الأصل الثالث من أصوله وهو «عدم عصمة الأئمة» ولم يناد الأئمة أبداً بعصمتهم ، ولكن أتباعهم فى الكوفة وفى المدينة فعلوا هذا ، ورأى زيد فى رحلاته إليها كل هذا واستمع لآراء الغلاة وانتهى به الأمر إلى الإيمان بالاجتهاد وبالرأى واجتهد هو وقاس فى فقهه ، وآمن بالعدل والتوحيد فى عقائده ، فالإمام الفاطمى إذن فى رأى الزيدية غير معصوم ولا علم لديه مخزون ، وإن كان تلميذه هرون بن سعيد العجلى هو الذى نقل لنا الجفر – كتاب الشيعة السرى – عن جعفر الصادق ، ولكن زيداً تلميذ المعتزلة كان عدو الغنوصيات وعدو فكرة العلم السرى . وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم اشترط كون الإمام فاطمياً ؟ إن زيداً يرى أن أبناء فاطمة هم أقرب الناس ، بنسبهم الطاهر إلى العدالة والسخاء والشجاعة وأنهم بنسبتهم إلى فاطمة الزهراء سيقيمون أكثر من غيرهم عمود الدين وسنن الإسلام ، ولكن المصلحة أولى بالاعتبار من الأفضلية ، ومصلحة المسلمين أولى بالاعتبار من أولاد فاطمة عليها السلام ، فإذا كان الإمام غير الفاطمى عدلاً ، ولم يخرج فاطمى ، واستقام أمر المسلمين ، فلا ضرر ولا ضرار .

أعاد زيد أمر المسلمين إذن إلى المسلمين أنفسهم ، أهل الحل والعقد منهم ، أن يختاروا إماماً عادلاً ، فإذا تقدم «فاطمى» يتصدى للإمامة بالدعوة إلى نفسه كان على أهل الحل والعقد والموازنة بين من تقدم ، فإذا تقدم الفاطمى ، ولى أمر المسلمين ، وإذا تقدم غير الفاطمى ، كانت المصلحة فى تقديمه . فليس هناك إذن شرط فى الإمام سوى المصلحة ، وهى الأساس لا القرشية ولا الفاطمية . وهذا أيضاً اتجاه خارجى .

وأخيراً . . تأتى إلى الأصل الأخير من أصول الزيدية فى الإمامة وهو «تجويز خروج إمامين فى

قطرين يستجمعان هذه الخصال ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة » (١) وأعتقد أن هذا النص لم يصدر عن الإمام زيد ، بل وضعه الزيدية الذين تابعوا الإمامين محمداً وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن فى ثورتهما على المنصور ، حين خرجا فى دولة هذا الأخير وقتلا . اللهم إلا إذا فسرنا النص تفسيراً آخر ، وهو تجويز الخروج والطاعة فى الخروج ، بمعنى الثورة على الإمام الظالم ، فيجوز أن يقوم إمام من أئمة أهل البيت بالثورة على الظلم ، ثم يسلم أحدهما الأمر للآخر ، هذا تخريج بعيد ، ومن الأفضل القول بأن هذا الأصل لم يصدر عن زيد ، وهو القائل : والله لوددت أن يدى معلقة بالثريا فأقع على الأرض أو حيث أقع فأنقطع قطعة قطعة دون أن أصلح بين أمة محمد ، والإصلاح لن يكون إلا باجتماعها على رجل واحد .

وأخيراً . . هل نرى فى فقه الزيدية السياسى مصطلح المهدية ؟ أما أن زيداً أنكر المهدية بمعنى الرجعة ، فواضح جداً من هذا الإمام المعتزلى العقلى ، فلا مهدى منتظر ولا رجعة ، ولكن المهدى : هو الخارج على الظلم ، المجدد الفقهى وهو الذى يخرج مجاهداً فى سبيل الله ليملأ الأرض عدلاً ، فإذا كان زيد قد لقب بالمهدى ، ويبدو أنه كان يدعى بالمهدى فى حياته وأشار إلى هذا شاعر بنى أمية حين قال :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

فالمقصود بالمهدى منسوباً إلى زيد ، من يقوم بهداية الناس ، ومجالدة الإمام الظالم .

آراء زيد الكلامية :

يحاول الشيعة المتأخرون – ما وسعهم الحيلة – أن يثبتوا أن « العدل والتوحيد ، إنما نشأ فى رحاب البيت العلوى وأنه انبثق من على أولاً ثم من محمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم ثانياً ، ثم أخذ به الأئمة جميعاً حتى دخل فى عقائد الأئمة الاثنى عشرية . وهذا خطأ ، فعلى زين العابدين كان على عقيدة رجال الحديث فى مسألة العدل والتوحيد ، كما كان ابنه محمد الباقر . أما الإمام جعفر الصادق فكان على عقيدة أهل السنة والجماعة فى الجبر والاختيار . وكان تلامذته على خلاف مجسمة كما سنرى فى الفصول التالية ، وكان هشام بن الحكم أكبر تلامذته من أشد أعداء المعتزلة . أما الاتصال الحقيقى بين المذهب المعتزلى وأئمة أهل البيت فكان على يد زيد بن على . ولا شك أن زيداً قابل واصلاً وعرفه معرفة وثيقة فى البصرة ، ثم قابله فى المدينة . بل إن صلة واصل بزيد بن على وبعبد الله بن الحسن قسمت البيت العلوى إلى قسمين ، وجعلت القسمين يتلاحيان بالألفاظ . ويقص لنا صاحب المنية

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

وصول واصل إلى المدينة ونزوله على إبراهيم بن يحيى. ومسارعة زيد بن على وابنه يحيى بن زيد وعبدالله بن الحسن وإخوته لمقابلته والترحيب به . فلما علم جعفر بن محمد الصادق بمسارعة أهل البيت له واجتماع الناس عليه ، اصطحب جملة من أصحابه وذهب إليه والقوم من بنى هاشم عنده ، فقال له جعفر : أما بعد فإن الله تعالى بعث محمداً بالحق والبينات والنذر وأنزل عليه ، «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» فنحن عترة رسول الله وأقرب الناس إليه ، وإنك يا واصل أتيت بأمر يفرق الكلمة وتطعن به على الأئمة وأنا أدعوكم إلى التوبة» .

فوقف واصل يرد عليه فقال : «الحمد لله العدل فى قضائه ، الجواد بعطائه ، المتعالى عن كل مذموم ، والعالم بكل خفى مكتوم ، نهى عن القبيح ولم يقضه ، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه ، وإنك يا جعفر وابن الأئمة شغلك حب الدنيا ، فأصبحت بها كلفاً ، وما أتيناك إلا بدين محمد ﷺ وآله وصاحبيه وضجيعيه ابن أبى قحافة وابن الخطاب ، وعثمان . وعلى بن أبى طالب وجميع أئمة الهدى ، فإن تقبل الحق تسعد به وإن تصدف عنه تبؤ بإثمك» وتكلم زيد بن على فأغلظ لجعفر أى أنكر عليه وقال : ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا[١]» ، ويقول ابن المرتضى «كان زيد ابن على لا يخالف المعتزلة إلا فى المنزلة بين المنزلتين» ويحاول ابن المرتضى – على عادة أهل الفرق فى تجميل مذاهبهم لآل البيت «لا نقول إن جعفراً أنكر على واصل القول بالعدل بل المنزلة بين المنزلتين» «وسئل جعفر عن القدر فقال : «ما استطعت أن تلوم العبد عليه ، فهو فعله ، وما لم تستطع فهو فعل الله ، يقول الله للعبد لم كفرت ولا يقول لم مرضت[٢]» .

ولكن إذا كان الخلاف بين جعفر وبين واصل هو فى المنزلة بين المنزلتين ، وكان هذا الخلاف هو بين زيد وبين واصل ، فلم أسرع جعفر إلى الحلقة ؟ ولم تلاقى زيد وابن أخيه ؟ إن الواضح تماماً أن الخلاف كان جوهر المذهب ، «وهو العدل والتوحيد» ومهما حمل جعفر من أقوال قدرية ، فالرجل كان على عقيدة أبيه محمد الباقر فى الموقف المتوسط بين الجبر والاختيار ، وهو أقرب المذاهب إلى ما نادى به أهل السنة فيما بعد ، ومهما يكن الأمر ، فإن زيداً تابع المعتزلة فى جوهر عقائدهم مع اختلافات يسيرة .

١ – التوحيد :

ليس هناك نص واضح يثبت بأن زيد بن على ذهب – موافقاً المعتزلة – إلى أن الصفة عين الذات ، ولكن الشيخ المفيد يذهب إلى أن الزيدية تثبت الصفات التى جاءت فى القرآن والسنة على

(١) ابن المرتضى : المنية والأمل ص ٢٠ ، ٢١ . (٢) ابن المرتضى : المنية .

أنها ليست معانى غير الذات [١] وهذا أصل معتزلى ، وكان واصل بن عطاء أول معبر عنه . ولكن هل تكلم زيد فى « التوحيد » ودعا إليه كما دعا واصل وهل دخل زيد فى مناقشات الفرق ، وهل عنى رجل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بهذا الدقيق من الكلام ، أم قالت به الزيدية بعده – حين اعتنقت اعتناقاً كلامياً آراء المعتزلة ؟ إن الأستاذ الشيخ أبو زهرة يصل إلى رأى صائب حين يقول : « وإذا كان زيد يتفق فى جملة من الآراء مع واصل بن عطاء ، وهذا رأى واصل فى الصفات – أن الصفات عين الذات – فإنه يصح لنا أن نقول : رأى زيد فى الصفات كان هو رأى واصل . وتفصيل ذلك الرأى أن الله تعالى يتصف بأنه حى قادر سميع بصير ولكن بذاته ، ومن غير قدرة زائدة على الذات – ولا سمع زائد على الذات – وذلك ليتفادوا قول الحشوية، وليتفادوا قول النصارى الذين ادعوا أن الأقانيم الثلاثة صفات للذات العلية [٢] .

وإذا كان العلم هو الذات ، والذات هى العلم ، والذات قديمة ، والعلم من حيث هو ذات قديم ، فلا بداء إذن فى علم الله ، لأن البداء تغير ، والقديم لا يتغير ، والإرادة قديمة ، ولا تتغير الإرادة بتغير العلم ، كما يذهب من يقول بالبداء .

وقد تفرع عن مشكلة قدم الصفات ، أو حدوثها مشكلة قدم كلام الله أو خلقه وبالتالى فكرة قدم القرآن أو خلقه . وقد آمنت الزيدية بفكرة خلق القرآن ، ولكن لا يرد عن الإمام زيد نفسه شىء يمس هذه المسألة لا من قريب ولا من بعيد ؛ فهل كره الإمام زيد الخوض فيها ، وقد رأى خالد بن عبد الله القسرى – وقد كان على صلات طيبة به – أن يحارب كل من يعتنقها ؟ فقتل بيان بن سمعان التميمى وكان أول من نادى بها ، ثم قتل الجعد بن درهم ، وقد نسبت حركة خلق القرآن إليه [٣]

٢ – العدل :

آمن زيد بن على بالعدل ؛ بأن الله عادل فى حكمه بمعنى أنه لا يجبر الناس على المعاصى ، وقد نسبت عقيدة العدل إلى أبيه على زين العابدين من قبل ، وأنه نادى بها أمام يزيد بن معاوية ، بعد مذبحة أبيه وإخوته وأهل بيته . فقد دعا يزيد بن معاوية على بن الحسين وقال له : ما اسمك ؟ فقال : على . قال : أو لم يقتل الله علياً !؟ فأجاب زيد : قد كان لى أخ أكبر منى يسمى علياً فقتلتموه . فقال يزيد : بل الله قتله . قال على : الله يتوفى الأنفس حين موتها [٤] » . اتخذ القدريون من هذه القصة دليل على أن الإمام على زين العابدين ليس جبرياً . ولكنهم اقتطعوا بقية المناقشة والتى يبدو منها يزيد

---

(١) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ . (٣) ابن قتيبة عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٨ .
(٢) محمد أبو زهرة : الأمام زيد ص ٢١٨ . (٤) ابن المرتضى : المنية ص ٧ ، ٨ .

قدرياً ، وعلى زين العابدين جبرياً . فإن يزيد يستطرد ويرد بالآية « ما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ويرد على زين العابدين « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » [١] . بل إن أهل العدل يذهبون إلى أن علياً نفسه كان من « أهل العدل » وأنه فسر القدر بمعنى الأزلى « والقضاء بمعنى الحكم التكليفى » ؛ « فلا قدر حتماً ولا حكماً واجباً » ، فالقدر هو أنه يعلم علماً أزلياً ما نفعل ولكن لم يجبرنا عليه وإلا « بطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد » والقضاء هو الحكم ، والإرادة هى أمر تخيير ونهى وتحذير . ولم يكلف مجبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً . وقضاهن سبع سماوات – أى جعلهن سبع سماوات ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » أى أراد ربك ، وواصل أخذ مذهبه فى العدل عن أبى هاشم بن محمد بن الحنفية . وضع المعتزلة إذن آل البيت فى نسق رجالهم وفى سلسلة مشايخهم ؛ ولكن كل هذا تخريج بارع فالمجبرة وضعوا نفس الأئمة فى سلسلة مشايخهم ؛ ولكن من الثابت أن زيداً بن على آمن بالعدل . فصلته بواصل بن عطاء كانت صلة واضحة ، ولا شك أنه رأى المعاصى فى البصرة ترتكب باسم القضاء والقدر ، فأنكر فكرة الجبر . وقد رأينا واصلاً يرد على جعفر بن محمد بن أخيه ، باسم الله العدل فى قضائه ، بل يبدو أن أبا الخطاب الأسدى سأله عما يذهب إليه فى هذه المشكلة فقال ، أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ومن المرجئة الذين طمعوا الفساق فى عفو الله ، فزيد إذن ينكر المجبرة ، وقد دعاهم هنا بالقدرية ، كما ينكر أقوال المرجئة الخالصة الذين قالوا بأنه لا يضر مع الإيمان معصية وهو هنا قطعاً لا يقصد « إرجاء السنة » الذى نادى به صديقه وتلميذه أبو حنيفة بل « مرجئة البدعة » كما بينت فى الجزء الأول من كتابى هذا .

٣ – الإيمان ومرتكب الكبيرة :

إن تبرؤ الإمام زيد بن على من المرجئة يدعونا إلى أن نبحث موقف زيد من حقيقة الإيمان وما يستتبعه من رأيه فى مرتكب الكبيرة . فزيد يذهب مع المعتزلة إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فالمعاصى لا تنقصه والطاعات لا تزيده . إن الإيمان الصحيح يقتضى العمل حتماً . فالعمل والإيمان متلازمان فمن لا يعمل عاص ومرتكب كبيرة . وهذا يختلف عن رأى أبى حنيفة الذى يذهب إلى أن الإيمان لا تنقصه المعصية ولا تزيده الطاعة . لأنه حقيقة ثابتة فى القلب [٢] . وإذا كان الإيمان

---

(١) ابن المرتضى : المنية ص ١٢ .

(٢) الشيخ أبو زهرة : الإمام زيد ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

لا يزيد ولا ينقص ، فما هو موقف زيد من مرتكب الكبيرة ؟ لقد وضعه واصل بن عطاء فى المنزلة بين المنزلتين المشهورة ، وإرجاء الماصرية – أصحاب عمر بن قيس الماصر – وأبو حنيفة من رأيه ونظرائه [١] الحكم فى مرتكب الكبيرة إلى الله ، إن شاء الله عفا برحمة من عنده ، وإن شاء عذب بما فعله الإنسان بكسبه ، وتغالى مرجئة البدعة وأعلنوا أن « الإيمان عقد بالقلب » وأن ما سوى ذلك لا يضر مع الإيمان ، فمرتكب الكبيرة – ما دام مؤمناً – من أهل الجنة . ولكن زيداً يختلف مع كل هؤلاء ، ويختلف تماماً مع المعتزلة ، بل إن صاحب المنية المعتزلى يقول إن الاختلاف الوحيد بين زيد وبين المعتزلة إنما كان فى « المنزلة بين المنزلتين [٢] » لقد ذهب إلى عقيدة الجمهور وهى : أن مرتكب الكبيرة لا يذهب عنه اسم الإيمان ولا اسم الإسلام ، بل يعذب حيناً من الدهر ثم مرده إلى الجنة [٣] .

تلك هى آراء زيد فى المشاكل الكلامية التى كانت تشغل العالم الإسلامى فى عصره . آراؤه بالإجمال مصبوغة بصبغة المعتزلة ، ولكن من المبالغة أن نقول – مع الشهرستانى – إن زيداً ابن على تتلمذ على واصل وأخذ الأصول عنه ، ونستنتج من هذا أن الزيدية – وكما يستنتج الشهرستانى أيضاً – صارت كلها معتزلة [٤] فلم يتفق زيد اتفاقاً تاماً مع معتزلية واصل . من المحتمل أن يكون الزيدية بعد زيد اعتنقوا المذهب المعتزلى جملة ، ولكن ليس من دقة القول فى شىء أنهم أخذوا بكل تفصيلات هذا المذهب ، وليس من الصواب فى شىء أن نقول : إن الزيدية أخذت بالفكرة المعتزلية (التحسين والتقبيح العقليين كاملة) واعتنقتها ، إن المعتزلة تعلن أن الأشياء حسنة وقبيحة فى ذاتها ، وأن العقل بذاته يصل إلى الحسن والقبح فى الأشياء فالعقل هو مصدر التكليف أولاً ، والزيدية تذهب إلى أن « العقل قد يحسن ويقبح ويصل إلى ما فى الأشياء من حسن وقبح ، ولكنها ترى أن العقل فى علمه يحتاج إلى السمع ، وأنه غير منفك عن سمع ينبه الغافل على كيفية الاستدلال وأنه لابد فى أول التكليف وابتدائه فى العالم من رسول [٥]

والإمامية تتفق مع الزيدية فى أن العقل أيضاً ليس هو مناط التكليف الوحيد مع أنه قد يصل إلى الحسن والقبح فى الأشياء ، ولكن مناط التكليف هو السمع ثم نرى فكرة وجوب الأصلح على الله المعتزلية . تصادف هوى لدى الإمامية المتأخرة ، ولكن الزيدية ترفضها .

وأخيراً ننتهى من آراء زيد بالقول بأنه لم يؤمن بالتقية الشيعية ، بينما يعلن ابن أخيه على لسان

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٧ .
(٢) ابن المرتضى : المنية ص ٢٠ .
(٣) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٩٤ .
(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣ .
(٥) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٤٤ .

الإمامية «أنها ديني ودين آبائي» . وهذا قاعدة أصل الخروج استمده زيد بن على أو تأثر فيه – على الأقل – الخوارج ، ويلزم عنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كما لم يؤمن بنسبة المعجزات إلى الأئمة ، وأنكر إنكاراً باتاً قدسيتهم وعصمتهم . وأنكر فكرة الرجعة فى تطوراتها وصورها المختلفة .

ولقد خاض زيد بن على فى الفقه ، وأصوله . وقد ترك لنا كتاب المجموع «مجموع الحديث ومجموع الفقه» ، جمعه تلميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى . والمجموع هو أساس الفقه الزيدى . وقد تعرض جامعه لهجمات عنيفة من الإمامية ومن أهل السنة . ولكن الزيدية قبلت المجموع ، وإن كان قد خالفه فى بعض المواضع إمام زيدى مشهور هو الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، والمذهب الزيدى يتسع لهذا ويقرر ضرورة الاجتهاد فى المذهب .

الفصل الرابع

حركات الزيدية السياسية

لم يكن استشهاد زيد بن على فى الكوفة نهاية المطاف للحركة الزيدية ، بل كان هذا الاستشهاد فى سبيل العقيدة ، داعياً إلى حركة استشهاد أخرى كانت العامل الأكبر فى القضاء على الدولة الأموية المروانية ، فقد هرب يحيى بن زيد بعد مقتل أبيه إلى خراسان ، وهناك بقى مستتراً فى خلافة هشام يطلق الأشعار فى أبيه :

خليلى عنى بالمدينة بلغا ... بنى هاشم أهل النهى والتجارب
فحتى متى مروان يقتل منكم ... خياركم والدهر جم العجائب
وحتى متى ترضون بالخسف منهم ... وكنتم أباة الخسف عند التجارب
لكل قتيل معشر يطلبونه ... وليس لزيد بالعراقين طالب (١)

ولما مات هشام بن عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ، واستفاض ظلمه وفساده ظهر يحيى بن يزيد بخراسان مجاهداً ، منفذاً لمذهب أبيه «خروج فاطمى عادل سخى زاهد» طلباً للخلافة ، وكما قتل الأب قتل الابن . وكما صلب الأب فى الكوفة ، صلب الابن . وذلك فى عام خمس وعشرين ومائة .

وقد أتى يحيى أناس من المحكمة (فرقة من الخوارج) يسألونه أن يخرج معهم فيقاتلون بنى أمية ، فأراد لما رأى من نفاذ رأيهم وقوتهم أن يخرج معهم ، ولكن أصحابه نهوه أن يفعل وقالوا له «كيف نقاتل بقوم تريد أن تستظهر بهم على عدوك ، وهم يبرأون من على وأهل بيته ؟» . وفى هذا دلالة على ما يشعر به الخوارج من اتفاق مع الزيدية فى الخوارج على الإمام الظالم (٢)

وقد أثر قتله وصلبه فيما بعد فى أهل خراسان ، ويقول المسعودى :

«أظهر أهل خراسان النياحة على يحيى بن زيد سبعة أيام فى سائر أعمالها فى حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بنى أمية ، ولم يولد فى تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمى بيحيى أو بزيد لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه (٣) » وكانت هذه الملحمة فى أرض خراسان سبباً هاماً فى التفاف الخراسانيين حول أبى مسلم الخراسانى ، وقيام «المسودة» أى شيعة العباسيين الراوندية بالضربة الأخيرة للقضاء على دولة بنى أمية . وأخيراً — تولى العباسيون الخلافة ، وآلت من السفاح إلى أبى جعفر المنصور . وهناك

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١٣١ .
(٢) الأصفهانى : مقاتل . . . ص ١١٣ .
(٣) المسعودى : مروج . ج ٢ ص ١٨٥ .

تحرك الزيدية أو بمعنى أدق آل البيت من ذرية الحسن متخذين الزيدية أساساً لقيامهم فى وجه المنصور. إن عقيدة زيد فى الإمامة هى خروج فاطمى عالم سخى. مجاهداً فى سبيل الله. فلم يقصر زيد الإمامة على أولاد الحسين بل أشرك فيها أولاد الحسن ، وسرعان ما تلقف هذا عبد الله بن الحسن ابن الحسن ، وقد كان على عداوة بيّنة مع زيد بن على فى أثناء حياته ولكنه آمن بآراء زيد بعد استشهاده وكان الرجل قد أعد ابنه محمداً بالمدينة للإمامة وقد تلقب بالمهدى وبالنفس الزكية ، كما خرج ابنه الآخر إبراهيم بالبصرة ، وهم أيضاً ينفذون ما نسب إلى الزيدية من جواز خروج إمامين فاطميين عادلين فى وقت واحد ، وقد قتل الاثنان عام ١٤٥ هـ . وفيهم يقول دعبل بن على الخزاعى :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات
قبور بكوفان وأخرى بطيبة ... وأخرى بفخ نالها صلواتى
وأخرى بأرض الجوزجان محلها ... وأخرى بباخمرا لدى الغربات
فأما الممضات التى لست واصفاً ... مبالغها منى بكنه صفات
قبور لدى النهرين من أرض كربلا ... معرسهم منها بشط فرات

قلت إن عبد الله بن الحسن وكذلك أخاه الحسن بن الحسن قد اعتنقا مذهب الزيدية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [١] . وقد أعد عبد الله بن الحسن ابنه محمداً كما أعد ابنه إبراهيم للخروج . وكانت المعتزلة قد تكونت فعلاً كحزب سياسى ، وقد أثرت المعتزلة فى زيد بن على – كما قلنا – ، وخرج منفذاً لأصلها الخامس وما لبثت المعتزلة أن سيطرت على يزيد بن الوليد : فخرج يزيد ابن الوليد على أبيه الوليد «وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقه من المعتزلة وغيرهم على الوليد لما ظهر من فسقه وشمل الناس جوره . وكان يزيد يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه فى الأصول الخمسة «ويرى المسعودى أن المعتزلة تفضل يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز» [٢] .

ولكن يزيد بن الوليد لم يعش فى خلافته سوى خمسة أشهر وليلتين ثم مات ، ورأى المعتزلة أن يتجهوا إلى آل البيت ، بعد أن عاد الأمر إلى المروانية يحكمون بالنار والحديد ويشيعون الظلم والفسق والفجور فى العالم الإسلامى . وفى الأبواء اجتمع بنو هاشم وبايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن وبايع معهم أبو جعفر المنصور ما عدا الإمام جعفر الصادق الذى أبى أن يبايع ، وأخبرهم أن محمداً وإبراهيم سيقتلان فى خروجهما وأن الأمر لبنى العباس .

ويذكر الأصبهانى أن أبا جعفر المنصور كان قد عقد لمحمد بن عبد الله بن الحسن فى ناس من

---

(١) الأصفهانى : مقاتل الطالبين . ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) المسعودى : مروج ... ج ٢ ص ١٩١ إلى ١٩٣ .

المعتزلة . ولكن يبدو أن المعتزلة انقسمت فيما بعد حول بيعة أبى جعفر المنصور لمحمد بن عبد الله الحسن ، فقد دعا محمد بن عبد الله الحسن عمرو بن عبيد لبيعته فأبى «وكان عمرو حسن الطاعة فى المعتزلة ، خلع نعله ، فخلع ثلاثون ألفاً نعالهم» (١) وكان يقول : «لا أبايع رجلاً حتى أختبر عدله» فالمعتزلة إذن لم يقفوا جميعاً بجانب محمد بن عبد الله بن الحسن فى خروجه على أبى جعفر المنصور (٢) . وقد حفظ أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد هذه المنة . وفى الحقيقة إن حركة محمد بن عبد الله كانت أشبه بحركات الخوارج ، وقد دعا المنصور محمد بن عبد الله بالخارجى فى حديث له مع أبى مسلم العقيلى (٣) . بل إن عبد الله بن الحسن نفسه كان صديقاً ليسير الخارجى (٤) .

فحركة محمد بن عبد الله كانت مزيجاً من عقائد معتزلية ، فمن الثابت أنه تتلمذ هو وجماعة من بنى طالب على أبى أيوب بن الأوبر داعية واصل بن عطاء ورسوله للمدينة (٥) . ثم اعتنق مذهب الزيدية فى الإمامية ، ثم مزج كل هذا بفكرة الخوارج فى الخروج وعدم التقية . وقد أوهمه أبوه وأهل بيته أنه مهدى الزمان وأنه سيخرج فيملأ الأرض عدلاً ، وحاول جعفر الصادق بكل جهده أن ينهاهم عن هذا ، وتنبأ لهم بقتله وقتل أخيه فنسبوه إلى الحسد والمقت لهما .

ومنذ صباه أخذ الفتى يتوارى ويراسل الناس بالدعوة إلى نفسه ويعلن أنه المهدى . وأنكر عمرو بن عبيد على محمد دعوته ، وكان هذا سبباً فى انفضاض الناس من حوله ، ويبدو أن محمد بن عبد الله لم يكن قدرياً خالصاً ، بل إنه كان يدعى الاعتزال «لاشتمال الناس» أى لجمع الأنصار (٦) . ثم اختلف الشيعة أيضاً فى خروجه ، فكثير من أتباع جعفر الصادق لم يحاربوا مع محمد بن عبد الله وإن كان موسى وعبد الله ابنى جعفر الصادق قد شاركا فى القتال مع محمد ، وانقسم أولاد زيد بن على قسمين . البعض مع أبى جعفر المنصور والبعض فى رجال محمد بن عبد الله . كما انقسم أيضاً الفقهاء غير أن العدد الكبير منهم مشارك فى الخروج . كابن هرمز الفقيه المشهور وكذلك محمد بن عجلان فقيه المدينة ورائدها ومالك بن أنس . وقد سأله أهل المدينة عن بيعتهم لأبى جعفر المنصور فأفتى «إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين» فأسرع الناس إلى مبايعة محمد بن عبد الله (٧) وعدد كبير آخر من كبار المحدثين والفقهاء كالمنذر بن المنذر وأبو بكر بن أبى سبره وعبد الله بن عطاء وأولاده التسعة وعبد الرحمن بن أبى الموالى وأبو سفيان الثورى وهو القائل «وهل أدركت خيار الناس إلا الشيعة» وقد أعطانا سفيان الثورى سر انصراف الناس عن محمد بن عبد الله «إلا أن قوماً من هذه الرافضة وهذه المعتزلة قد

(١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٤٨ .
(٢) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٤٥ .
(٣) المسعودى : مروج ج ٢ ص ٢٣٧ .
(٤) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٦٢ .
(٥) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٦٥ .
(٦) نفس المصدر : ص ١٧٢ .
(٧) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٩٥ .

بغضوا هذا الأمر للناس[١] فكثير من أهل السنة إذن الذين كانوا يكرهون حكم العباسيين – كما كرهوا حكم الأمويين – لم تطمئن أنفسهم إلى القتال مع طوائف متباينة التفت حول محمد بن عبد الله ، غير أن الاسم الذى غلب على أنصار محمد بن عبد الله بن الحسن هو الزيدية ويقول المسعودى « وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعمائة رجل » [٢] .

وكما فشلت حركة الزيدية فى الكوفة أولا وفى المدينة ثانيا – والبلدتان كما نعلم موطنا الشيعة – فإننا نجدها تقوم فى بلد اشتهر بأمويته وبعثمانيته ، وهو البصرة . ولعل البصرة وجدت منفذاً لهذا – أى منفذاً من الحكم الهاشمى العباسى ، وفى حركة مضادة – وإن كانت أيضا من علوى – وقامت الزيدية فى البصرة مع الابن الثانى لعبد الله بن الحسن وهو الإمام إبراهيم بن عبد الله بل خرج إليه جماعة من الكوفة من أصحاب زيد بن على متنكرين فى زى الحجاج حتى لحقوا به بالبصرة وعلى رأسهم مسلم بن أبى واصل (الحذاء) [٣] . وكان إبراهيم بلا شك أقوى بيانا وأكثر شجاعة من أخيه محمد بن عبد الله وأجابه وجوه أهل البصرة ، وفتيان العرب فيها . ووقف إبراهيم يخطبهم فقال : ياأهل البصرة لقيتم الحسنى . آويتم الغريب ، لا أرض ولا سماء ، فإن أملك فلكم الجزاء وإن أهلك ، فعلى الله عز وجل الوفاء » يقول الأصبهانى « فجعلت الزيدية هذه الكلمة ندبة تندبه بها بعد قتله ، مشبهينها بالنوح » ولكن إبراهيم أيضا اختلف مع الزيدية ، فقد أتى عيسى بن زيد إلى البصرة ، ودعى الزيدية إلى إمامته فأجابوه إلى هذا ، ولكن أهل البصرة – وهم سنة وجماعة – لم يوافقوا على إمامة عيسى بن زيد فاتفق عيسى بن زيد وإبراهيم على قتال جعفر ، حتى إذا تم لهم النصر نظروا فى الأمر . ثم ما لبث أن اختلف الاثنان [٤] فقد صلى إبراهيم على جنازة بالبصرة فكبر عليها أربعا ، فاعترض عليه عيسى بن زيد بن على ، قائلا « لم نقصت واحدة ، وقد عرفت تكبير أهلك ؟ » فقال : « إن هذا أجمع للناس ونحن إلى اجتماعهم محتاجون وليس فى تكبيرة تركتها ضرر إن شاء الله » فغضب عيسى واعتزله وقتاً ما ، وبلغ الأمر المنصور فأرسل إلى عيسى يطلب منه أن يخذل الزيدية عن إبراهيم [٥] ولكن عيسى بن زيد تروى فى الأمر وما لبث أن عاد للقتال مع إبراهيم .

ونستنتج من هذا أن الزيدية كانت فئة قليلة فى البصرة ، وأن إبراهيم أراد أن يجذب إليه أهلها ، وكانوا أهل سنة وجماعة ، فكبر أربعاً ، وهى عادة السنة ، فاعترض عليه عيسى بن زيد وهذا مافت فى عضد الزيدية ولا شك أن خذلان هذا البعض من الزيدية لإبراهيم – إن صحت الرواية – كانت

---

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٠١ .
(٢) المسعودى : ج ٢ ص ٢٣٩ .
(٣) الأصبهانى : مقاتل ... ص ٢٣٩ .
(٤) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين . ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٥) الأصبهانى : مقاتل ... ص ٢٤٩ .

عاملاً من عوامل هزيمته ، وكان أيضاً من عوامل هزيمته أن أهل البصرة لم يدافعوا بيقين كامل عن أحقية إبراهيم فى الخلافة والإمامة .

كما أن كثيرين من أهل السنة لم يتابعوه فرفض خالد بن عبد الله الواسطى شيخ أهل السنة والجماعة إعلان بيعته ، كما كان يكره أهل البصرة بعضاً من رجاله وبخاصة الفضل بن محمد الضبى ؛ وكان يستغل قيام إبراهيم بالدعوة إليه فى بيته ، فيحتال لنشر المذهب الشيعى خلال إقامة إبراهيم لديه ، ولكن إبراهيم كان زاهداً عابداً فتابعه عباد البصرة وقراؤها وفقهاؤها ، ولم يتابعه جمهور البلدة ؛ وحين قامت الحرب وأصابه سهم غائر ، كما أصاب زيد بن على فى طرقات الكوفة من قبل ، طافت به البقية من الزيدية التى ثبتت معه وأكبوا عليه يقبلون يديه ورجليه ويقاتلون دونه لا يبالون . وقد ترك لنا أبو الفرج الأصفهانى ثبتاً طويلاً بأسماء المحدثين والفقهاء والرواة الذين شاركوا إبراهيم خروجه : وعلى رأسهم أبو حنيفة وزفر بن الهذيل تلميذ أبى حنيفة المشهور ، بل إن زفراً يقول : « إن أبا حنيفة كان يجهز فى أمر إبراهيم جهزاً شديداً ويفتى الناس فى الخروج معه » فقلت له : والله ما أنت بمنته عن هذا حتى توفى ؛ فتوضع فى أعناقنا الحبال » بل إن أبا حنيفة كتب إلى إبراهيم هو ومسعر بن مكدام ، « يدعوانه إلى أن يقصد الكوفة ويضمنا له نصرتها وإخراج أهل الكوفة معه فكانت المرجئة تعتبه بذلك »[1] وكان يقول : إن القتل مع إبراهيم يعدل القتل (لو قتل الإنسان يوم بدر) ، والشهادة مع إبراهيم خير للإنسان من الحياة[2] . وكان مسعر بن مكدام زعيم مرجئة الكوفة . وقد عاتبته المرجئة كما عاتبت أبا حنيفة لدعوتها لإبراهيم ويبدو أن الزيدية كانت قد قويت فى الكوفة وقد ذكر أبو حنيفة فى كتابه لإبراهيم أن الزيدية فى الكوفة على استعداد للقضاء على المنصور فيها . وقد قيل إن المنصور لأجل وقوفه مع إبراهيم فى حركته . وأيده أيضاً عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء والأزرق بن تمة من أصحاب عمرو بن عبيد[3] .

ويصف لنا الأشعرى فى مقالات الإسلاميين حركة إبراهيم فيقول : « ثم خرج بعد محمد بن عبد الله أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب بالبصرة ، وغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد ، وشخص عن البصرة فى المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى بن زيد بن على ، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم فحاربهما إبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه[4] وهذا يبين حقيقة الزيدية للمرة الثالثة – مجموعة من القراءة والعباد والفقهاء ، مع فئة من الزيدية وفئة من المعتزلة وكان أمر الزيدية بعد إلى عيسى بن زيد ، ينص

---

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٤٤ و ص ٢٤٦ .
(٣) الأصبهانى : مقاتل ص ٢٥ .
(٤) المصدر السابق : ص ٢٥٧ .

من محمد بن عبد الله ، فإن محمد بن عبد الله جمع إليه وجوه الزيدية ، ومن حضر معه من أهل العلم وعهد إليه إنه إن أصيب فى وجهه ذلك فالأمر إلى عيسى بن زيد وكان عيسى «أفضل من بقى من أهله ديناً وعلماً وورعاً وزهداً وتقا وأشدهم بصيرة فى أمره ومذهبه مع علم كثير وكان محدثاً – طلعة فى كل مكان – وروى عن أبيه وجعفر بن محمد وأخيه عبد الله بن محمد سفيان الثورى والحسن بن صالح ومالك بن أنس وغيرهم من كبار المحدثين» (١) .

وقد اختلف عيسى كما رأينا مع إبراهيم – وفى رواية أنه اعتزل عنه وفى رواية أخرى أنه قاتل معه حتى مقتل إبراهيم ، وأراد الزيدية أخذ العهد له – ولكنه أبى – وتوارى ، يتدارس العلم والحديث والسيرة ، ويقابل فى تواريه أهل الحديث من الزيدية فى الكوفة والمدينة ومكة حين يأتى للحج متنكراً ويعد لحركة زيدية خطيرة وقد عرف باسم «موتم الأشبال» لقوته الخارقة ، ثم طلب منه الزيدية الخروج بعد مدة وفى حكم المهدى العباسى ، وكان الحسن بن صالح من رجال الكوفة وصاحب ديوانه وفى بيته نزل عيسى. وقال له الحسن بن صالح يوماً : «حتى متى تدافعنا بالخروج ، وقد اشتمل ديوانك على عشرة آلاف رجل ؟» فقال له عيسى : «ويحك أتكثر على العدد وأنا بهم عارف ؟ أما والله لو وجدت فيهم ثلاثمائه رجل أعلم أنهم يريدون الله عز وجل ويبذلون أنفسهم له ويصدقون للقاء عدوه فى طاعته لخرجت قبل الصباح حتى أبلى عند الله عذراً فى أعداء الله وإجراء أمر المسلمين على سنته وسنة نبيه» ولكنه رفض . وهو يعلم يقيناً أن قلوب الناس معه وسيوفهم عليه ومع أعدائه . . . وكان دعاته يعملون وكان صاحبه الحسن بن صالح هو الذى ينشر الدعوة مع ثلاثة من أشهر أتباع الزيدية هم ابن علاق الصيرفى ، وحاضر مولى زيد ، وصباح الزعفرانى وطلبهم المهدى ، فتوارى ابن علاق وصباح ووقع حاضر فى يدى المهدى ، فاستجوبه عن مكان عيسى ، فأبى أن يدله عليه ، فقتله ، واختفى الآخران . فلما مات عيسى قال صباح للحسن بن صالح «أما ترى هذا العذاب والجهد الذى نحن فيه بغير معنى ؟ ! قد مات عيسى بن زيد ومضى لسبيله وإنما نطلب خوفاً منه ، وإذا علم أنه مات ، آمنوا وكفوا عنا . فدعنى آتى هذا الرجل – يعنى المهدى – فأخبره بوفاته حتى نتخلص من طلبه لنا وخوفنا» . فقال الحسن بن صالح : «لا والله لا نبشر عدو الله بموت ولى الله ابن نبى الله فو الله لليلة يبيتها خائفاً منه أحب إلى من جهاد سنة وعبادة بها» وهذا يدل على أن الحركة الزيدية فى الكوفة كانت تعمل عملها فى الخفاء وتستعد لضربتها القادمة وأن الإمامية لم تكن المسيطرة عليها . ولكن قضى على الحركة وفاة عيسى بن زيد – وقد كان عيسى من أخطر رجال الحركة الزيدية – ثم مات صاحبه الحسن بن صالح بعد وفاة

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الأصبهانى : مقاتل : ص ٢٧٢ .

الإمام عيسى بشهرين . وذهب صباح الزعفرانى داعية عيسى بن زيد إلى بغداد – ومعه ابنا عيسى بن زيد «أحمد ، وزيد» – وطلب مقابلة الخليفة المهدى ، وتبين لنا المقابلة إلى أى مدى ذهب زيود الكوفة فى حب زيد وأولاده فقد أخبر صباح الخليفة أنه إنما أتى ليضع ولدى عيسى بن زيد وهو ابن عمها ، لكى ينشآ نشأة طيبة صالحة ، وأنه لا يأبه هو نفسه بعقاب الخليفة ولا يريد جزاء منه ولا مكافأة ، ولولا كبر سنه وفقره لما أتى إليه بهما . وسر المهدى العباسى وعاش الطفلان فى أكنافه . وقد بقى أحمد بن عيسى إلى خلافة الرشيد وتنسك وتزهد وكان الزيدية يجتمعون إليه ، فأخذه الرشيد وحبسه مدة ولكنه تخلص من الحبس ، وتوارى .

وانتشرت الزيدية فى بغداد ، فقد قام فيها أيضاً على بن العباس من ولد الحسن بحركة زيدية ، ولكن المهدى العباس قضى عليها ، وسجن على بن العباس ثم سمه . غير أن المهدى العباسى لم يبلغ مبلغ أبيه فى معاملته القاسية لبنى الحسن فلما توفى وتولى ابنه موسى الهادى بدأ ولاته بإيحاء منه ، يعاملون بنى طالب أسوأ معاملة ، وقام الحسين بن على بن الحسن والمعروف «بصاحب فخ» بحركة زيدية أخرى بعد أن تحمل من عامل الهادى بالمدينة هو وأهل بيته أشد أنواع المهانة والاضطهاد . وخرج الحسين مع جماعة من بنى الحسن إلى مكة يدعون إلى «الرضا من آل محمد» ، وفى فخ قابلتهم جيوش العباسيين وقتلتهم واحداً بعد واحد . ومن العجب – أن موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق نهاهم عن الخروج . كما فعل أبوه من قبل مع محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم ، بل أخبرهم : أنهم مقتولون بفخ [1] وحين يذكر عيسى بن عبد الله قصتهم واستشهادهم العظيم فى وادى الحجاز ، يشير إلى أنهم «هيجوا» أى أرغموا على الخروج حين عم ظلمهم وظلم الناس .

فلا بكين على الحسين بعبرة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذى أثووه ليس بذى كفن
تركوا بفخ عصبة فى غير منزلة الوطن
كانوا كراماً هيجوا لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن
هدى العباد بجدهم فلهم على الناس المنن

ثم خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب على الرشيد وكان يحيى أخذ العلم عن جعفر الصادق ، وشارك فى حركة الحسين شهيد فخ . وذهب يحيى إلى الديلم وتابعه بعض زيدية الكوفة من الزيدية البترية ، وهم – كما سنرى بعد – يتولون أبا بكر وعمر . ثم عثمان فى ست سنين من إمارته ،

(١) الأصبهانى : مقاتل ... ص ٢٨٨–٣٠٥ .

ثم يكفرونه فى باقى عمره وقد اختلفت الزيدية البترية مع يحيى . واضطر يحيى إلى مصالحة الرشيد – بعد أن أعطاه أماناً ولكن ما لبث الرشيد أن حبسه ثم قتله – فى قصة طويلة مؤلمة [١] .

وتظهر الزيدية مرة أخرى مع إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فقد أفلت إدريس من واقعة فخ وهرب إلى المغرب . وهناك تتبعه هارون الرشيد – ويذكر الأصبهانى أن يحيى بن خالد البرمكى دعا إليه سليمان بن جرير الجزرى وكان من متكلمى الزيدية البترية ومن أولى الرياسة فيهم ووعده وعوداً كثيرة أن يذهب إلى المغرب وأن يدس السم لإدريس ، ويذكر أن سليمان بن جرير سافر إلى المغرب واحتمى بإدريس فأنس به واجتباه «وكان ذا لسان وعارضة وكان يجلس فى مجلس البربر فيحتج للزيدية ويدعو إلى أهل البيت ، وقد أعجب به إدريس وقربه إليه ، حتى تمكن سليمان بن جرير من دس السم له [٢] .

وإذا صح هذا ، فيكون الزيدية البترية إذن قد انقلبت على أولاد الحسن بن على واختلفت معهم مرة مع يحيى بن عبد الله ومرة مع إدريس بن عبد الله .

وبقى العباسيون يخشون الزيدية فقتل هارون الرشيد عبد الله بن الحسن بن على بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب بدعوى أنه يجمع الزيدية أيضاً للخروج [٣] .

ثم كتبت الزيدية ملحمة أخرى من الملاحم حين خرج محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين أيضاً هو ومحمد بن إبراهيم – وكان داعيهم الأكبر فى فارس – من أكبر فرسان الإسلام هو أبو السرايا ، السرى بن منصور «وكان علوى الرأى ذا مذهب فى التشيع ، «ولكنه حارب مع الزيدية واستولى على الكوفة وأغلب فارس وانتصر على العباسيين ، ولكن أهل الكوفة خذلوه فى نهاية الأمر ، وقد قتل فيما بعد هو ومحمد بن محمد وفى مكة خرج محمد بن جعفر بمائتى رجل من الجارودية الزيدية وعليهم ثياب الصوف وسياء الخير عليهم ظاهرة [٤] ثم خرجت الزيدية الجارودية مع محمد بن القاسم ، من أحفاد الحسن بن على – ويذكر الأصفهانى أنه كان يذهب إلى القول بالعدل والتوحيد ، ويرى رأى الزيدية الجارودية ، وقد تفرق عنه أهل الكوفة لما عرفوا زيديته وميله إلى المعتزلة . وقد عرف محمد بن القاسم بصاحب الطالقان ، وقد انتهى الأمر بأسره وسجنه ، ومات فى سجنه [٥] .

ثم خرج فى أيام المستعين يحيى بن عمر من أحفاد زيد بن على ، واجتمع عليه أهل الكوفة أيضاً ، وكان له أنصار كثيرون يقول الشهرستانى : «خرج ودعا الناس واجتمع عليه خلق كثير» ، ويبدو أن

---

(١) الأصبهانى : مقاتل ... ص ٣٠٧ .
(٢) الأصبهانى : مقاتل الطالبين ص ٢٢٦ .
(٣) الأصبهانى : مقاتل الطالبين ص ٣٧٢ .
(٤) الأصبهانى : مقاتل ... ص ٢٥٣ .
(٥) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٦ .

الشيعة كانت قد استقرت أيضاً فى بغداد . ووافقت دعوته «إلى الرضا من آل محمد» هوى فى نفوس البغداديين . يقول الأصفهانى : «وكان هوى أهل بغداد مع يحيى ولم يروا قط مالوا إلى طالبى خرج غيره» ولما قتل يحيى فى الكوفة وحمل رأسه إلى بغداد ، جعل أهلها يقولون «إن يحيى لم يقتل ميلاً منهم إليه ، وأخذ الناس يصيحون «ما قتل وما فر ، ولكن دخل البر [١]» وهذا يدل على انتشار المذهب الشيعى حينئذ فى بغداد ، وإيمان عدد كبير منهم بالغيبة ، هذا بالرغم من أن يحيى بن عمر كان يقاتل على قاعدة زيدية .

وتعددت الحركات الزيدية ، ولكنها فشلت جميعاً حتى ظهر الإمام الناصر الحسن بن على من نسل الحسين والمعروف بالأطروش يقول الشهرستانى : «ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش فطلب مكانه ليقتل ، فاختفى واعتزل إلى بلاد الديلق والجبل ولم يتحلوا بدين الإسلام بعد ، فدعا الناس دعوة الإسلام على مذهب زيد ، وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ظاهرين ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة [٢] .

ثم انتقل المذهب الزيدى إلى اليمن على يد الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم من أحفاد الحسن ، وقد ولد بالمدينة سنة ٢٤٥ . والإمام الهادى زيدى المذهب معتزلى العقيدة ، وقد بايعه أهل اليمن عام ٢٨٤ ، وأخذ يحارب التشيع الغالى ومذهب القرامطة ، وفى سنة ٢٩٢ اشتبك فى حروب عنيفة مع القرامطة ، حتى مات عام ٢٩٨ . وتولى الأمر بعده أبناؤه .

---

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبين ص ٤١٣

(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٥٤

الفصل الخامس

تطور العقائد الزيدية الكلامية

ألقى الإمام زيد بن على بآرائه فى الإمامة وبعقائده الدينية ، فشغلت بها مجامع المسلمين جميعاً فى ذلك العصر ، وعاشت آراؤه بعده ، وتناولها أتباعه وتلامذته بالتفسير ، واختلفوا عليها . واختلافاتهم وتفسيراتهم إنما استلهمت من حياة زيد وآرائه . وقد قسم مؤرخو العقائد الإسلامية الزيدية إلى فرق متعددة سنحاول أن نعطى فى هذا الفصل صورة لها .

أول فرقة نشأت – فيما يبدو – كفرقة زيدية هى الجارودية نسبة إلى مؤسسها أبى الجارود – ويكنى أبا النجم زياد بن المنذر الهمذانى الخراسانى العبدى ويقال له أحياناً النهدى والثقفى الكوفى (توفى ما بين عام ١٥٠هـ و ١٦٠هـ) (١) ويبدو أنه أخذ العلم أولاً على محمد الباقر ، ثم فارقه . ولقبه سرحوبا ، وفسر الباقر نفسه سرحوبا بأنه شيطان أعمى يسكن البحر (٢) ، أما جعفر الصادق فقد لعنه وقال «إنه أعمى القلب أعمى البصر» أما أهل السنة فقد اعتبروه رافضياً يضع الحديث فى مثالب الصحابة ويرى فى فضائل أهل البيت عنهم أشياء لا أصول لها . بل اعتبروه من أهل الكوفة الغلاة (٣) ويبدو أنه اتصل بزيد بن على فى الكوفة ، وأصبح من رجاله المعدودين ، وقد شارك ، بالرغم من عماه ، فى المعركة مع زيد هو ورجاله ، وثبت معه ، حين تخلى عنه شيعة الكوفة من الروافض» .

ولقد عادى الإمامية الجارودية عداوة مرة ، ولقد رأينا كيف أن الإمامين محمد الباقر وجعفراً الصادق تبرآ منه . ويتضح هذا من إعلانه للأصل الهام للزيدية وهو «أن الإمامة قد صارت بعد مضى الحسين فى ولد الحسن والحسين فهى فيهم خاصة دون سائر ولد على بن أبى طالب» وبهذا الأصل خرج على إمامة الباقر والصادق . ثم يضيف إلى هذا الأصل شروط الخروج «وهم كلهم فيها شرع سواء ، من قام منهم ودعا لنفسه فهو الإمام المفروض الطاعة بمنزلة على بن أبى طالب واجبة إمامته من الله عز وجل على أهل بيته وسائر الناس كلهم . وهذا شرط يفتقد أيضاً فى الباقر والصادق . ثم يشير إلى قعود كل من الباقر والصادق ويقول «من تخلف عنه فى قيامه ودعائه إلى نفسه من جميع الخلق فهو كافر» ثم يغمز كلا من الباقر والصادق من طرف خفى «ومن ادعى منهم الإمامة – وهو قاعد فى بيته

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٢١ والشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) النوبختى فرق الشيعة ص ٥٥ . (٣) تهذيب التهذيب : ص ٢٨٦ .

مرخى عليه ستره ، فهو كافر مشرك» ، «وكل من اتبعه على ذلك وكل من قال بإمامته» وقد دعا هذا إلى كراهية الإمامية للجارود ، وللجارودية وتسميته بسرحوب وفرقته بالسرحوبية ، ويبدو أنه كون عقائده قبل أن يتصل بزيد ، فلما أعلن زيد دعوته . انضم إليه هو وأصحابه وقالوا بإمامته [١] .

ويختلف أيضاً أبو الجارود مع الإمامية فى أنه يرى أن النبى ﷺ نص على على عليه السلام بالوصف لا بالتسمية ، والناس قصروا حيث لم يتعرفوا الوصف ولم يطلبوا الموصوف ، وإنما نصبوا أبا بكر باختيارهم ، فكفروا . أو بمعنى أدق إن أبا الجارود لم يتول الشيخين - كما فعل زيد بن على - بل كفرهما ، وكفر الصحابة جميعاً . بل ذهب أبو الجارود إلى أن الإمام بالنص سواء من النبى أو من على على الحسن والحسين بعد على ، وقد كفر الناس أيضاً بتركهم الاقتداء بهما بعد أبيهما [٢] ويقص لنا النوبختى - وهو شيعى إمامى نفس الشىء عن الجارودية فيقول «قالوا بتفضيل على عليه السلام ولم يروا مقامه يجوز لأحد سواه ، وزعموا أن من دفع عليا عن هذا المكان فهو كافر ، وأن الأمة كفرت وضلت فى تركها بيعته وجعلوا الإمامة بعده فى الحسن بن على عليهما السلام ثم فى الحسين عليه السلام ثم هى شورى بين أولادهما فمن خرج منهم مستحقاً للإمامة فهو الإمام ويرى النوبختى أن من الجارودية تشعبت صفوف الزيدية [٣] فالجارودية إذن هى الزيدية الأولى .

نسبت الجارودية العلوم الخاصة إلى الأئمة من آل البيت جميعاً يلقى فيهم فطرة وضرورة قبل التعلم ، «إن علم ولد الحسن والحسين عليهما السلام كعلم النبى ﷺ ، فيحصل لهم العلم قبل التعلم فطرة وضرورة بل إنهم متساوون فيه من المهد» الحلال حلال آل محمد ﷺ وآله والحرام حرامهم والأحكام أحكامهم وعندهم جميع ما جاء به النبى ﷺ وآله كامل عند صغيرهم وكبيرهم والصغير منهم والكبير منهم فى العلم سواء لا يفضل الكبير الصغير ، من كان منهم فى الخرق والمهد إلى أكبرهم سناً وليس يحتاج أحد منهم أن يتعلم من أحد منهم ولا غيرهم ، العلم ينبت فى صدورهم كما ينبت الزرع المطر ، والله عز وجل قد علمهم بلطفه كيف شاء . فنحن إذن نعود هنا إلى فكرة الغلاة فى العلم الإلهى ، وأنه ينتقل من إمام إلى إمام ، أو بمعنى أدق أصبح الإمام عنصراً أبستيمولوجياً . يفيض العلم منه وينتقل . ويحاول أن يعلل النوبختى قول الجارودية فكرة فطرية العلم عند الأئمة : وإنما قالوا بهذه المقالة كراهة أن يلزموا الإمامة بعضهم دون بعض ، فينتقض قولهم إن الإمامة صارت فيهم جميعاً فهم فيها شرع سواء [٤] ، قد يكون تعليل النوبختى معقولاً إلى حد ما ولكن يبدو أن السبب العام فى قول

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٥ .

(٢) الاشعرى : مقالات ج ١ ص ٦٧ . والبغدادى : الفرق ٢٣ والشهرستانى : الملل : ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) النوبختى : فرق الشيعة ص ٢١ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٥٦ .

الجارودية بهذا هو ضخامة فكرة العلم السرى المنسوب إلى الأئمة وانتشار هذه العقيدة فى الكوفة ، بل إننا نرى زيدياً معتدلاً – هو هارون بن سعيد العجلى – هو الذى نقل لنا كتاب الجفر المنسوب إلى جعفر الصادق . لقد كان من الشائع فى الكوفة أن لدى أهل البيت جميعاً علم الأولين والآخرين وأنه انتقل إليهم من محمد ﷺ إلى على ثم إلى أولاده من بعده . ومن العجب أن زيداً بن على هو الذى كره المجامع الغنوصية فى الكوفة – ولعل استعانته بواصل بن عطاء وموافقته على منهجه العقلى إنما كان للقضاء على الغنوصية ، ثم يقع أتباعه فى غنوصية كاملة . بل ذهب البعض منهم إلى أن علياً علم ما علمه رسول الله ﷺ من علم الدنيا والآخرة ، وما كان وما هو كائن ، وعلم على بعد رسول الله علماً لم يكن يعلمه ، وأن علياً أعلم من رسول الله ﷺ ، وجعلوا الأئمة بعده يرثون ذلك منه إلى يومنا هذا الأكبر فالأكبر ، وأن العلم يولد معه لا يحتاج إلى تعليم (١) اختلطت إذن فكرة العلم السرى بعقائد الزيدية وأثرت فى أكبر فرقها ، ولكن ما لبثت سائر الفرق الزيدية الأخرى أن أنكرت ذلك ووسعوا الأمر فقالوا : العلم مثبوت مشترك فيهم وفى عوام الناس هم والعوام من الناس فيه سواء . وبهذا فتحوا باب الاجتهاد والاختيار والرأى(٢) .

والآن . . . وضحت لنا معالم الجارودية ، مزيج من شيعة غالية وزيدية ، أى رافضة وزيدية .

وأخيراً ، عادت الجارودية ، رافضة بعد أو شيعة غالية فاختلفت فى « التوقف والسوق » وآمنوا بالمهدية وخلود الإمام فشاركوا فى حركة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن . واختلفوا بعد مقتله فمنهم من قال : إنه لم يقتل وهو حى ، وسيخرج ويملأ الأرض عدلاً . ومنهم من أقر بموته وساق الإمامة إلى محمد بن القاسم بن عمر بن على بن الحسين على صاحب الطالقان . ومنهم من قال بإمامة يحيى بن عمر . حدث كل هذا بعد موت أبى الجارود ، والنوبختى يرى « أن هؤلاء الذين وضعوا الإمامة على هذا النسق . على ، ثم زيد بن على بن الحسين ، ثم يحيى بن زيد ، ثم عيسى بن زيد بن على ثم محمد بن عبد الله بن الحسن هم الحسينية من الزيدية . ولا شك أن الفرق تتداخل وينطوى الواحدة منها فى الأخرى . وقد تشتت الجارودية بعد ذلك فى الإمامية والزيدية ، ولم يظفر أبو الجارود بمحبة أى من طوائف الشيعة المختلفة ، وإن كان هو يمثلها جميعها .

وقد ذكر أن من أصحابه فضيل بن الزبير الرسان وأبا خالد عمرو الواسطى ، وقد كان هذا الأخير راوياً لزيد ، وقدم لنا الفقه الزيدى فى كتاب الزيدية المشهور المجموع ، ومنصور بن أبى الأسود ، وقد اعتبرهم النوبختى الأقوياء من الزيدية (٣) .

---

(١) الملطى : التنبيه ص ١٥١ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٨ .

(٣) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٦ ، ٥٧ .

أما الفرقة الثانية من الزيدية فهى الصالحية نسبة إلى الحسن بن صالح بن حى الهمذانى الكوفى ، وكان الحسن بن صالح من أعظم فقهاء الإسلام وعبادهم ومتكلميهم وذكر عنه أنه «اجتمع فيه إتقان وفقه وعبادة وزهد ، وقد طلب منه أن يصف غسل الميت فما قدر عليه من البكاء» وكان هو وأخوه على وأمهما من العبادة أن قسموا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان كل واحد يقوم ثلثاً ، فماتت أمهما فاقتسموا الليل بينهما ثم مات على فقام الحسن الليل كله» وكان من أصحاب سليمان الدارانى عابد الشام الكبير ، وكان الدارانى يقول عنه : «ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه من الحسن . قام ليله بعم يتساءلون ، فغشى عليه فلم يختمها» ويذكر عنه أيضاً أنه كان ممن تجرد للعبادة ورفض الرئاسة . وقد كرهه بعض علماء الفقه من أمثال سفيان الثورى وقال فيه «ذاك رجل يرى السيف على الأمة» [١] . أى أنه يرى الخروج .

ويذكر ابن النديم أن الحسن بن صالح ولد سنة مائة ، وكان من كبار الشيعة الزيدية وعظمائهم وعلمائهم ، وكان فقيها متكلماً ، وأنه كان له أخوان على وصالح وكان الاثنان على مذهب أخيهما ، وكان على بالذات متكلماً ، ويرى ابن النديم أن أكثر علماء المحدثين والفقهاء زيديه» .

ثم يذكر أن الحسن بن صالح مات سنة ثمان وستين ومائة ، متخفياً وله من الكتب «كتاب التوحيد . وكتاب إمامة ولد على من فاطمة ، وكتاب الجامع فى الفقه [٢]» . وقد حظى الحسن بن صالح باحترام أهل السنة ، وقد ذكر البغدادى أن الحسن بن صالح وأصحابه أقرب الناس إلى السنة ، وقد أخرج له مسلم ، وذكره البخارى فى التاريخ الكبير وقال الحسن بن صالح بن حى الكوفى : سمع سماك بن حرب ومات سنة سبع وستين ومائة وهو من ثوار همدان وكنيته أبو عبد الله [٣] . فالجمهور إذن على توثيقه كمحدث .

شارك الحسن بن صالح وأهل بيته فى الخروج مع زيد بن على ، ولكن لا يبدو أنه شارك فى خروج إبراهيم بن عبد الله . ثم حين قتل هذا الأخير وتوارى عيسى بن زيد وجد فى دور بنى صالح بن حى ملجأ آمناً . وقد لزم الحسن بن صالح عيسى بن زيد فى تواريه ، وكان صاحبه ووزيره ، ذهب معه إلى الحج ، وكانا يتذاكران العلم ، وقص لنا الأصبهانى صاحب كتاب «مقاتل الطالبيين» مقابلة الاثنين لسفيان الثورى ، وقد دعا الحسن بن صالح سفيان «بالشفاء» وهذا ما يدل على أن الحسن بن صالح لم يتأثر بكراهية سفيان له [٤] . ثم أخذ الحسن بن صالح يجتمع بالزيدية وينظم الدعوة لعيسى

---

(١) تهذيب : التهذيب ج ٢ ص ٢٨٥ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٢٧ .
(٣) البغدادى : الفرق . . . ص ٢٤ .
(٤) الأصبهانى : مقاتل . . . ص ٢٧٧ .

ابن زيد، وقد أحصى له فى ديوانه عشرة آلاف رجل . وطلب من عيسى بن زيد الخروج ولكن عيسى رفض . وقد مات الحسن بن صالح بعد وفاة إمامه بشهرين ، وقد ذكرنا من قبل – ونحن نتكلم عن عيسى بن زيد – كيف نهى الحسن بن صالح صباح الزعفرانى أن يبلغ خبر وفاة عيسى بن زيد للمهدى العباسى . وحين بلغ المهدى العباسى وفاة الحسن بن صالح سجد وقال : الحمد لله الذى كفانى أمره ، فلقد كان أشد الناس على ولعله لو عاش لأخرج على غير عيسى [١] فالحسن بن صالح إذن كان أخطر رجال الحركة الزيدية على الإطلاق . لقد اختص فيما يبدو بأبناء زيد وبقى مخلصاً لهم دون أولاد فاطمة الآخرين مدى حياته . ويذكر النوبختى أن أحد أبناء الحسن بن صالح بن حى خرج مع جماعة من أهل الكوفة – الزيدية البترية ، مع يحيى بن عبد الله بن الحسن والمشهور بصاحب الطالقان . فاختلف معه ثم فارقه [٢] . وهذا دليل واضح على أن الحسن بن صالح وأولاده أخلصوا لأبناء زيد بن على وهم من ولد الحسين .

والشخصية الثانية من شخصيات الفرقة الصالحية – وتنسب هذه الفرقة إليها أيضاً – هى شخصية «كثير النواء» وهو أبو إسماعيل كثير بن إسماعيل بن نافع النواء ، وسمى أتباعه بالبترية لأن كثيراً كان يلقب بالأبتر [٣] . وكان كثير النواء محدثاً ، وهو من رجال الميزان . ويذكر النوبختى أن البترية هم أصحاب الحديث . وعدّ منهم سفيان بن سعيد الثورى وشريك بن عبد الله وابن أبى ليلى ، بل محمد ابن إدريس الشافعى ومالك بن أنس . ومن الخطأ الكبير أن يعتبر هؤلاء جميعاً زيدية ، وإن كانت تشويهم فعلاً شائبة من زيدية .

أما آراء الحسن بن الصالح أو الصالحة : فهى تكاد تكون آراء زيد بن على نفسها :

أولاً : إمامة المفضول وتأخير الفاضل والأفضل ، إذا كان الأفضل راضياً بذلك ، إن علياً أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالإمامة ، ولكنه سلم الأمر راضياً ، وفوض الأمر إليهم طائعاً ، وترك حقه راغباً ، فنحن راضون بما رضى مسلمون لما سلم ، لا يحل لنا غير ذلك ، ولو لم يرض على بذلك ، لكان أبو بكر هالكاً ، فالصالحية إذن تتولى الشيخين ، فى صورة من الصور . ولا ضير فى طريق توليهم هذا لهما عند أهل السنة والجماعة فإذا انتقلنا إلى رأيهم فى عثمان : وهل هو مؤمن أم كافر ، نراهم مرجئة قالوا : إذا سمعنا الأخبار الواردة فى حقه وكونه من العشرة المبشرين بالجنة ، قلنا : يجب أن يحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة ، وإذا رأينا الأحداث التى أحدثها من استئثاره

---

(١) الأصبهانى : مقاتل . . . ص ٢٨٣ .

(٢) النوبختى : مقاتل الطالبين ص ٣١٢ .

(٣) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ .

بنى أمية وبنى مروان واستبداده بأمور لم توافق الصحابة . قلنا : يجب أن يحكم بكفره . فتحيرنا فى أمره ونوقفنا فى حاله ، ووكلناه إلى أحكم الحاكمين [١] » . وهذا خلاف بلا شك مع أهل السنة والجماعة ، ولكنه خلاف رقيق ، ويتضح منه قبول الصالحية لأسانيد أهل السنة ، والحديث عن العشرة المبشرين بالجنة ، وقد أنكره الإمامية ثم نرى – كما قلت – روحاً مرجئية ، أو تطبيقاً لمبدأ الإرجاء فى عثمان رضى الله عنه .

أما النوبختى ، فقد اعتبر الزيدية المعتدلة أو الضعفاء هم العجلية : أصحاب هارون بن سعيد العجلى الكوفى ، وهو من أصحاب جعفر الصادق ، وممن نقل عنه كتاب الجفر ، واعتبر الصالحية والبترية فرقة من العجلية ، وعد من أصحاب العجلى – كثير النواء ، وهو الذى يدعى بالأبتر ، وكان أيضاً من رجال الحسن بن صالح ، ثم سالم بن أبى حفص والحكم بن عتيبة وسلمة بن كهيل وأبو المقدام ثابت الحداد .

ويرى النوبختى أن آراء هذه الفرقة سواء سميت بالعجلية أو البترية : هى الدعوة إلى ولاية على بن أبى طالب ثم خلطها بولاية أبى بكر وعمر . ويرى النوبختى « هم عند العامة أفضل الشيعة » وذلك أنهم يفضلون عليا ويثبتون إمامة أبى بكر [٢] » .

ثانياً : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : كانت هذه الفرقة الممثلة حقيقة لهذا المذهب . آمنوا به ، وقد تفرع عنه فكرتهم فى الخروج مع كل من ولد من على عليه السلام عن طريق فاطمة . ويثبتون الإمامة لمن شهر سيفه من أولاد الحسن والحسين وكان عالماً زاهداً شجاعاً ، أى يثبتونها له عند خروجه ، وعليهم إذن القتال تحت رايته .

ثالثاً : إنكار التقية : ويتفرع عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « إنكار التقية » فلا يكون إماماً من يفتى بالباطل على شىء بوجه من الوجوه ولا فى حال من الأحوال . ولا يكون إماماً من يفتى تقية بغير ما يجب عند الله أو من يفتى على وجه التبخيت ، فيفتى يوماً بوجه ، ويوماً آخر بوجه ، فيضل صحيحى الفرم ممن يتدينو بإفتائه . ولا يكون إماماً من يرخى ستره ويغلق بابه . لا يسع الإمام إلا الخروج [٣] ؛ وفى هذا نقص كبير لمبادئ الإمامية .

أما الفرقة الثالثة الكبيرة من الزيدية فهى السليمانية وقد نسبت إلى مؤسسها سليمان بن جرير الرقى [٤] وقد ظهر أيام المنصور ويبدو أنه كان إمامياً أول الأمر ، ثم كون فرقته بعد انفصاله عن جعفر

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٧ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٩ ؛ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٩ .

(٤) النوبختى : فرق ص ٦١ .

الصادق . وهو يوافق الصالحية فى أن الإمامة شورى فيما بين الخلق ، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين . وأنها تصح فى المفضول مع وجود الأفضل . فإمامة أبى بكر وعمر حق باختيار الأمة ، حق اجتهادى . ومن المرجح أن الأمة أخطأت فى البيعة لها مع وجود الأفضل – على – خطأ لا يبلغ درجة الفسق . وذلك الخطأ خطأ اجتهادى . ثم يخالف الصالحية فى عثمان . فقد طعن فيه للأحداث التى أحدثها ثم أعلن تكفيره وتكفير أصحاب الجمل – عائشة والزبير وطلحة بإقدامهم على قتال على .

ثم اختلف سليمان بن جرير مع «الرافضة» أى الإمامية من أتباع جعفر الصادق . أومع جعفر نفسه . كان جعفر الصادق قد أعلن ولاية ابنه إسماعيل بن جعفر من بعده ، ولكن إسماعيل مات فى حياة أبيه ، فلما سئل جعفر الصادق – أو من عقائد الإمامية أن الإمام يعلم غيب السموات والأرض ؟ قال : إن الله عز وجل بدا له فى إمامة إسماعيل ، أى أن الأمر داخل فى نطاق البداء ، بدا له أن يموت إسماعيل ولا يكون إماماً ، أى تغيرت مشيئته . فأنكر سليمان بن جرير إمامة جعفر نفسه فأنكر «البداء» «والمشيئة من الله» وقال لأصحابه «إن أئمة الشيعة وضعوا لشيعتهم مقالتين لا يظهرون منهما من أئمتهم على كذب أبدًا ، وهما القول بالبداء وإجازة التقية [1] أما البداء ، فينكره سليمان بن جرير لأن أئمة الإمامية أحلوا لأنفسهم من شيعتهم محل الأنبياء من رعيتها فى العلم «فيما كان ويكون» أى أن الأئمة حاملون للعلم الغيبى . «والإخبار بما يكون فى غد» قالوا لشيعتهم «إنه سيكون فى غد وفى غابر الأيام كذا وكذا» فإن حدث ذلك الشيء على ما قالوه . قالوا لهم «ألم نعلمكم أن هذا يكون ، فنحن نعلم من قبل الله عز وجل مثل تلك الأسباب التى علمت بها الأنبياء عن الله ما علمت» وإن لم يحدث الشيء على ما قالوه . قالوا لشيعتهم «بدا لله فى ذلك بكونه» أى شاء الله غير ما أراده أولاً . ولهذا أنكر سليمان بن جرير البداء .

أما التقية ، فقد قرر سليمان بن جرير «أنه لما كثرت على الأئمة مسائل شيعتهم فى العبادات من حلال وحرام ، أجابوا على تلك المسائل ، وحفظ عنهم شيعتهم ما سألوه وكتبوه ودونوه . ولم يحفظ الأئمة تلك الأجوبة لتقادم العهد وتفاوت الأوقات ، لأن مسائلهم لم ترد فى يوم واحد ولا فى شهر واحد ، بل فى سنين متباعدة وأشهر متباينة وأوقات متفرعة ، فوقع فى أيديهم فى المسألة الواحدة عدة أجوبة مختلفة متضادة وفى مسائل مختلفة أجوبة متفقة ، فلما وقفوا على ذلك منهم ردوا إليهم هذا الاختلاف والتخبط فى جواباتهم وسألوهم عنه وأنكروه عليهم ، فقالوا : من أين هذا الاختلاف وكيف جاز ذلك ؟ قالت لهم أئمتهم : إنما أجبنا بهذا التقية ولنا أن نجيب بما أجبنا ، وكيف شئنا لأن ذلك إلينا ونحن نعلم بما يصلحكم وما فيه بقاؤنا وبقاؤكم وكف عدوكم عنا وعنكم» يتساءل سليمان بن

(١) النوبختى : فرق . ص ٤٢ .

جرير « فمتى يظهر من هؤلاء على كذب ، ومتى يعرف لهم حق من باطل ؟ »(١) وهنا أنكر التقية ، ومالت نفسه إلى الزيدية ، فآمن بها . وليس فى الزيدية علم سرى ، ولا إمام معصوم ولا تقية ولا بداء . وكانت لحركة سليمان بن جرير أثر كبير فى الشيعة إذ انفض عدد كبير منهم عن جماعة جعفر ابن على ، وتركوا إمامته .

تلك هى الفرق الهامة من فرق الزيدية ، ولكن المسعودى يذكر « أن الزيدية كانت فى عصره ثمانية فرق (٢) فيضيف إلى الفرق الثلاثة السابقة الفرق الآتية : المرئية ، والأبرقية . ولا ينسبها إلى شخص من الأشخاص ، ثم اليعقوبية : وهم أصحاب يعقوب بن على الكوفى ، ثم العقبية ثم اليمانية : وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفى . وقد ذكر الأشعرى هذه الفرقة الأخيرة باسم النعيمية : أصحاب نعيم ابن اليمان . ويرى المسعودى أن هذه الفرق قد زادت فى المذهب ، وفرعوا مذاهب على من سلف من أصولهم » ونلاحظ أن معظم تلك الفرق كانت كوفية ، فالكوفة إذن كانت مجالاً لجدل عنيف زيدى ، واختلافات زيدية . ويقول النوبختى « سموا كلهم فى الجملة زيدية إلا أنهم مختلفون فيما بينهم فى القرآن والسنن والشرائع والفرائض والأحكام »(٣) .

أما الملطى – وهو أقدم مؤرخ للعقائد ، وتسود كتاباته روح سلفية – فقد اعتبر الزيدية من جملة الروافض . وعلل تسميتهم بهذا الاسم أنهم « صاروا بطعنهم على عثمان وتقديمهم علياً رافضه يقال لهم الزيدية »(٤) فكل من رفض الخلفاء الثلاثة – فى رأى الملطى – رافضة ومنهم : الإمامية لرفضهم الشيخين ، والزيدية لرفضهم عثمان – وإن كانوا يتولون الشيخين . ثم قسم الملطى الزيدية إلى أربع فرق :

الفرقة الأولى من الزيدية عنده : ولا ينسبها إلى شخص معين وإنما يقول هى أعظمهم قولاً ، وهم « الذين يذكرون الصدر الأول وساثر من يشتون رأياً إذا خالفهم »(٥) أى أنهم يكفرون من ليس على مذهبهم . ويذكر الملطى أن هذه الفرقة ترى قتل المخالفين وسبى نسائهم ، وأخذ أموالهم وقتل أطفالهم . بل يراهم أشد أنواع الشيعة ضرراً « إنما هو بقدر ما يخرج الواحد منهم يضع السيف والحريق والنهب والسبى ولا يقصدون ولا يرعوون » ويذكر أنه ظهر من هذه الفرقة محمد بن على صاحب ثورة الزنج فى البصرة فقتل مخالفيه وأطفالهم متأولاً « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » ومما لا شك فيه أن الملطى هنا يبالغ كثيراً فى وصف هذه الفرقة ، ومما لا شك فيه أن فى الزيدية شبها بالخوارج – كما قلت – ولكن لا يصل

---

(١) النوبختى : فرق . . ص ٦٥ . ٦٦ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٣ .
(٣) النوبختى : فرق ص ٥٥ .
(٤) الملطى : التنبيه ص ١٥٦ .
(٥) الملطى : التنبيه ٣٨ ، ٣٩ .

إلى هذا الحد العنيف من قتل المخالفين وأطفالهم وسبى نسائهم . ومن العجب أنه يضع صاحب ثورة الزنج بين الزيود . فهل كان محمد بن على زيدى ومن آل البيت ومن الغريب أن النوبختى يعتبر الجارودية : بين الغالية والتناسخية . ويقول : إنهم لا يفصحون بالغلو ، ويرون أن الله نور وأرواح الأئمة والأنبياء منه متولدة ، وينحون نحو التناسخ ولا يقولون بانتقال الروح من جسد إنسان إلى جسد غير إنسان أى أن التناسخ عندهم فى نطاق النوع ، فتنتقل الروح من جسد إنسان ردىء إلى جسد إنسان مؤلم ممرض ، فيعذب فيه مدة بما عمل من الشر والفساد ثم تنقل إلى جسد إنسان متنعم ، فتنعم فيه طول ما بقيت فى الجسد الأول ويرى الملطى . أن الجارودية تذكر أن هذا هو « الكور » فيكون معذباً أو مقيداً فى جسد هرم أو ممرض أو مسقم . أو يكون منعماً فى جسد شاب حسن متلذذ ، وأنهم يستندون فى ذلك لقول الله « أفعيينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من خلق جديد (١) » . لا ينسب أحد من مؤرخى العقائد مذهباً فى التناسخ إلى الجارودية فهل أخطأ الملطى ؛ أم أن الجارودية دخلت فى الغلو بعد وفاة مؤسسها وشاركت الغلاة فى آرائهم ؟ . ليس لدينا من المصادر ما يؤكد هذا . إن من المحتمل أن الجارودية قد انصهرت فى الإمامية وشاركتها فى آرائها ولكن من البعيد جداً أن تنتهى إلى مذهب ثنوى بعيد كل البعد عن الإسلام . ثم يذكر الملطى الفرقة الثانية من الزيدية وهى التى تكفر السلف ويتبرأون من الشيخين ويتولون علياً وأبناءه ولكنهم لا يرون السيف – أى وضع السيف فى رقاب المخالفين وقتلهم ، ولا استحلال نسائهم ولا أموالهم .

أما الفرقة الثالثة عنده فهى فيما أرجح الصالحية وذلك أنه يذكر أنهم يقولون بأن الأمة ولت أبا بكر « اجتهاداً » لا عناداً ، وأن الصحابة قصدوا الحقيقة فأخطأوا فى الاجتهاد غير متعمدين ، وولوا مفضولاً على فاضل . ولم يكفروا أحداً من الصحابة . ويكاد يمدحهم الملطى – مع حدته ومرارة قلمه – فيقول « وهم أصحاب سمت ، ويظهرون زهداً وعبادة وخيراً ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقولون بالعدل والتوحيد » وهذه أوصاف تنطبق تماماً على الصالحية البترية ويهمنا أيضاً أنه يوجه الأنظار إلى معتزلية هذه الطائفة من الزيدية ، ثم يبين بحسم الاتفاق النهائى بين الزيدية وبين المعتزلة أو بينها وبين مدرسة كبيرة من المعتزلة فيقول : إن الفرقة الرابعة من الزيدية – هم معتزلة بغداد يقولون بقول الجعفرية – جعفر بن مبشر الثقفى وجعفر بن حرب الهمدانى ومحمد بن عبد الله الإسكافى وهؤلاء أئمة معتزلة بغداد ، وهم زيدية يقولون : بإمامة المفضول على الفاضل . ويقول : إن علياً عليه السلام أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ لا يسبقه بالفضل أحد من الأمة وزعموا أن إمامة المفضول على الفاضل جائز ، لما ولى النبى ﷺ عمرو بن العاص على فضلاء المهاجرين والأنصار فى غزوة ذات

(١) الملطى : التنبيه : ص ٣٨ .

السلاسل » (١) .

اختلطت إذن بعض فرق الزيدية ببعض فرق المعتزلة ومن الواضح أن المعتزلة أثرت أثراً بيناً فى الزيدية ؛ ولكن لم تأخذ كل فرق الزيدية بآراء المعتزلة فى دقيق الكلام وجليله . اقترب البعض منهم من الأشاعرة ، واقترب البعض الآخر منهم من المعتزلة والبعض الثالث مزج بين بعض عقائد المعتزلة والأشاعرة ونعطى بعض الأمثلة على هذا : فجمهور الزيدية – فى رأى الأشعرى – يقولون إن الله شىء لا كالأشياء ولا تشبهه الأشياء . وهذا اتجاه سنى ، ولكنى الأشعرى يورد أيضاً أن فرقة أخرى من الزيدية تقرر أن البارى ليس بشىء ، ومثال آخر : إن سليمان بن جرير – يقرر أن الله عالم بعلم لا هو هو ولا غيره ، وأن علمه شىء . قادر بقدرة لا هى هو ولا غيره وإن قدرته شىء . وكذلك سائر صفات الذات . وفرقة ثانية تقول : إن الله عالم قادر سميع بصير بغير علم وحياة وقدرة وسمع وبصر . وكذلك فى سائر صفات الذات . أى ينكرون الصفات إنكاراً كاملاً . فالسليمانية أصحاب سليمان بن جرير – كما رأينا – وقد كان متكلماً ممتازاً وترك كتاباً فى دقيق الكلام – يقترب إلى حد كبير فى فكرته عن الصفات من أهل السنة والجماعة ، ويختلف إلى حد ما عن المعتزلة ، وتقترب الفرقة الثانية من المعتزلة ، ولكن سليمان بن جرير سرعان ما يتفق مع المعتزلة فى إحالة القدرة : على الظلم لله « فالله عنده لا يوصف بالقدرة على أن يظلم ويجور ، ولا يقال لا يقدر : لأنه يستحيل أن يظلم ويكذب » وهذا اتجاه معتزلى . بل إن الاتجاه المعتزلى يصل أوجه عنده حين يسأل عن قدرة الله على ما علم أنه لا يفعله ، فيجيب : « إن هذا الكلام له وجهان : إن كان السائل يعنى ما علمه أنه لا يفعله مما جاء الخبر بأنه لا يفعله ؛ فلا يجوز القول يقدر عليه ، ولا يقدر عليه ، لأن القول بذلك محال وأما ما لم يأت به خبر ، فإن كان مما فى العقول دفعه ، فإن الله عز وجل لا يوصف به ، وأن من وصفه به محيل ، فالجواب فى ذلك مثل الجواب فيما جاء الخبر بأنه لا يكون وأما ما لم يأت به خبر ، وليس فى العقول ما يدفعه ، فإن القول إنه يقدر على ذلك جائز ، وإنما جاز القول فى ذلك لجهلنا بالمغيب فيه ، ولأنه ليس فى عقولنا ما يدفعه ، وأنا قد رأينا مثله مخلوقاً » وهنا نجد سليمان بن جرير معتزلياً ، بينما فرقة أخرى موافقة للاتجاه السنى تقول : إن الله يوصف بالقدرة على أن يظلم ويكذب ولا يظلم ولا يكذب ، وأنه قادر على ما علم وأخبر أنه لا يفعله أن يفعله (٢) .

ويختلف الزيدية أيضاً فى خلق الأعمال ، ففريق منهم يرى أن أعمال العباد مخلوقة ، خلقها الله وأبدعها واخترعها فهو الفاعل على الحقيقة ، وفرقة أخرى ترى أنها غير مخلوقة لله ولا محدثة وهى أكساب العباد ، أحدثوها واخترعوها وأبدعوها وفعلوها ، وقد أدى هذا إلى بحث الاستطاعة فى المجامع

(١) الملطى : التنبيه . . ص ٣٩ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦ .

الزيدية : فهى عند البعض «مع الفعل والأمر قبل الفعل» وهذا رأى سنى . بينما يذهب سليمان بن جرير إلى أن الاستطاعة قبل الفعل وهى مع الفعل مشغولة بالفعل فى حال الفعل وإنما يستطيع الفعل إذا فعله ، ويرى أن الاستطاعة بعض المستطيع وأن الاستطاعة مجاورة له ، ممازجة كممازجة الدهنين ، وهذا رأى معتزلى . وفرقة ثالثة ترى أن «الاستطاعة قبل الفعل وأن الأمر قبل الفعل وأنه لا يوصف الإنسان بأنه مستطيع الشيء قادر عليه فى حال كونه» وهذه معتزلية مشوبة بأشعرية [١] . فالزيدية إذن تتردد بين المعتزلية وبين الأشعرية . وتختلف بينهما . هى بلا شك أقرب إلى المعتزلة ، ولكن ليس معنى هذا أنها لم تأخذ بعضاً من عقائد أهل السنة الكلامية . على أن عقائد الزيدية الكلامية تحتاج الى بحث تركيبى متسع وتتبع لتطورات هذا الفكر وبخاصة لدى متكلم الزيدية الممتاز سليمان بن جرير .

* * *

وبعد : فقد تطورت الزيدية . أما فى الأصول – فيما يقول الشهرستانى – «فيرجعون إلى رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة ، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت وأما فى الفروع فهم على مذهب أبى حنيفة إلا فى مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعى والشيعة» ثم يتكلم الشهرستانى عن زيدية عصره فيقول : «وأكثرهم فى زماننا مقلدون لا يرجعون إلى رأى واجتهاد» [٢] وعصر الشهرستانى كان القرن السادس الهجرى . ويبدو أن الزيدية بدأت تفقد خصائصها فى العراق وخراسان وتندمج فى الإمامية أيضاً فى ذلك القرن . فيقول الشهرستانى : «ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول وطعنت فى الصحابة طعن الإمامية» [٣] .

وانقرضت الزيدية فى كل مكان اللهم إلا اليمن فقد بقيت ، وفى مطلع هذا القرن ، انتشرت فيها فكرة عصمة الإمام وقداسته ، وسادها الفولكلور الإمامى على أشد ما يكون . وبذلك قطعت كل صلة بينها وبين المذهب الزيدى الحقيقى .

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٤ .